براعة النساء

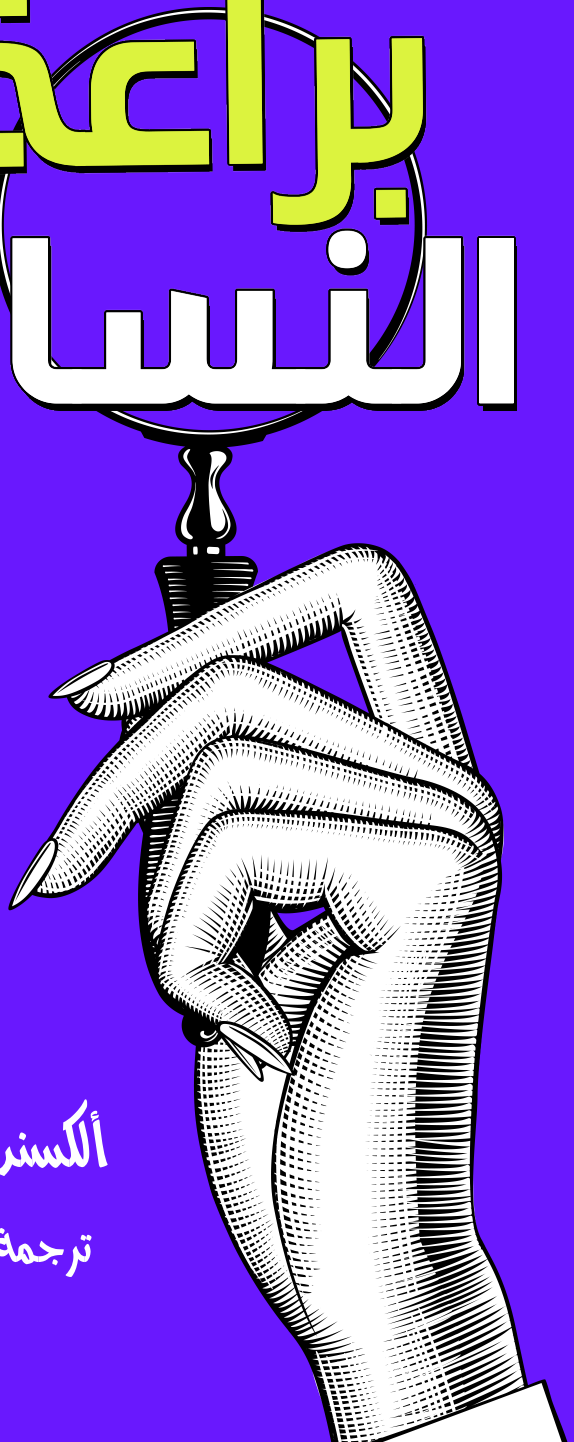

ألكسندر ماكول سميث

ترجمة سارة فاروق

براعة النساء

تأليف
ألكسندر ماكول سميث

ترجمة
سارة فاروق

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم

هنـــداوي

براعة النساء

ألكسندر ماكول سميث

The Cleverness of Ladies

Alexander McCall Smith

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٧٢٦ ٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأكسندر مكول سميث عناية ديفيد هايام أسوشيتس ليمتد.

Copyright © Alexander McCall Smith, 2012.

المحتويات

براعة النساء	٧
رياحٌ عاصفةٌ في نيفيس	٢١
فابريزيا	٢٧
أقحوان ناماكوالاند	٣٥
الموسيقى تُحدث فارقًا	٤١

براعة النساء

الفصل الأول

كان الوقت يمر ببُطء في وكالة التحرِّيات النسائية الأولى؛ وكالة التحرِّيات الوحيدة في بوتسوانا. سيكون من الخطأ القول إنه لم يكن يَحدث شيء؛ إذ كانت السيدة راموتسوي، التي أسَّست الوكالة للتعامل مع مشكلات النساء (وغيرهن)، تعلم أن ثمة شيئًا يحدث دائمًا. فالناس دائمًا ما يوقِعون أنفسهم في مواقفَ مُؤسِفة؛ كانوا يفعلون دائمًا، ولم تتغيَّر طبيعتهم البشرية على مرِّ السنين. لا، إن السبب في هذا الهدوء هو أنه لم يأتِ أحد إلى وكالة التحرِّيات الصغيرة الموجودة خلف مَرأب «تلوكوينج رود سبيدي موتورز» ليعرض مشكلته ويطلب المساعدة.

كان المَرأب مِلكًا لزوج السيدة راموتسوي، السيد جيه إل بي ميتكوني، الذي اتفق الجميع على أنه أفضل ميكانيكي في بوتسوانا. استمرت خِطبة السيدة راموتسوي على السيد جيه إل بي ميتكوني فترةً طويلة جدًّا، وفي النهاية تمَّت الزِّيجة. ولكن بعض الناس يقول إن هذا لم يكن سوى نتيجة مؤامرة ذكية دبَّرتها المشرفة الحاذقة في مزرعة تلوكوينج للأيتام، السيدة بوتوكواني.

ولكن كانت هذه النظرة قاسية. فقد كان السيد جيه إل بي ميتكوني في بعض الأحيان غير حاسم بعض الشيء، ومسألة إتمام زواجه لم تكن سوى واحدة من الأمور التي لم يكن حاسمًا بشأنها. والمهم في الأمر هو أنه تزوَّج السيدة راموتسوي في نهاية المطاف، وقد انتقل الآن إلى منزلها في منطقة زيبرا درايف، وهو منزل رائع به شُرفة ظليلة وحديقة خضراوات جيدة في الخلف.

كان الزوجان محظوظَين جدًّا، ولم يمرَّ يوم من دون أن تُذَكِّر السيدة راموتسوي نفسها بهذا الحظ الجيد. وعندما كان الوقت يمر ببطء في المكتب، كما هو الحال الآن،

كانت تُذَكِّر نفسها بحظها الجيد أكثر. فقد كانت هذه طريقة جيدة جدًّا لحماية نفسها من مشاعر الإحباط، وبخاصة عندما لم يكن هناك ما يمكن القيام به سوى مراقبة الوَزَغ الأبيض الصغير الذي كان يجري صاعدًا على الحائط في المكتب ثم، مُتحدِّيًا الجاذبية، يعبر ألواح السقف. ولكن مشكلة التفكير في حظك الجيد هي أنك، بعد فترة، تبدأ في الرغبة في أن تفعل شيئًا آخر، وهذا، بالطبع، يعتمد على دخول عميل إلى المكتب.

«سيدة راموتسوي؟» كان الصوت الذي قاطع تفكيرها هو صوت مساعدتها، السيدة ماكوتسي. فقد كانت السيدة ماكوتسي تشغَل وقتها بترتيب الملفَّات، والآن كانت تنظر باهتمام إلى ربَّة عملها. وأردفت: «تبدين مُستغرقةً في أحلام اليقظة.»

أومأت السيدة راموتسوي بالإيجاب. وقالت: «هذا صحيح، على ما أظن.» فقالت السيدة ماكوتسي: «لا بأس في ذلك. عندما لا يكون لديكِ شيء أفضل للقيام به.»

أجابت السيدة راموتسوي: «هذا صحيح. ليس لديَّ شيء.»

فقالت السيدة ماكوتسي: «ولكن لديكِ الآن. هناك شخص قادمٌ يا سيدتي. أراه بالخارج. إنه آتٍ ناحية الباب.»

فأمسكت السيدة راموتسوي بإحدى الأوراق وبدأت في تفحُّصها من كَثَب. فلا ضرر في أن يعتقد العُملاء أنها مشغولة، حتى عندما لا تكون كذلك. فإذا اعتقد العميل أنه ليس لديكَ ما تفعله، فقد تتزعزع ثقته في الوكالة، وهذا، على المدى البعيد، سيضر بوكالة التحرِّيات. فعند إسداء النصائح إلى الأشخاص الآخرين — وهو ما تنطوي عليه عادةً مهنةُ المحقق الخاص — من المهم أن يؤمن العميل بالمحقق. لذا لم تشعر السيدة راموتسوي أن هناك شيئًا خاطئًا في الإمساك بورقة والتظاهر بأنها مُنهمِكة في قراءتها. حتى لو كانت الورقة مجرد رسالة من أحد مورِّدي السيد جيه إل بي ميتكوني، يقول فيها إن مجموعة من شمعات الإشعال التي طلبها السيد جيه إل بي ميتكوني للمرأب وصلت الآن وفي انتظار التسلُّم.

أدخلت السيدة ماكوتسي العميل وأشارت إلى كرسي الزوَّار. وقالت للرجل الأنيق الذي بدا في منتصف العمر: «هذا هو المكان الذي يجب أن تجلس فيه يا سيدي.» كان قد أخبرها باسمه، لكنها لم تسمعه جيدًا ولم ترغب في سؤاله مرةً أخرى. كان هناك ما يوحي بالسُّلطة في هيئة هذا الرجل. فعندما عرَّف نفسه، كانت لديه نظرة توحي أنها لا بد أن تعرف بالضبط مَن هو في كل الأحوال. بدا شكله مألوفًا للسيدة ماكوتسي. هل كان رجل سياسة؟ فهُم عادةً ما كانوا يتمتعون بمثل هذه الثقة بسبب ممارستهم للسلطة، وعادةً ما يتوقَّعون من الناس أن يعرفوا مَن هم.

نظرت السيدة راموتسوي إلى زائرها. هي أيضًا كانت تجد صعوبةً في تحديد هويته. ولاحظت بعين المحقِّقة، التي كانت دائمًا مستعدة لالتقاط الأدلة البصرية، الحذاء الباهظ الثمن والإبزيم الذهبي في حزامه. لا يمكن شراء هذه المقتنَيات محليًّا؛ فهي مُستورَدة من خارج البلاد؛ من جوهانسبرج، على أقل تقدير، أو ربما من مكان أكثرَ بُعدًا، مثل لندن أو نيويورك. هل هو رجل أعمال؟ كان هناك عدد من رجال الأعمال الأثرياء في جابورون في هذه الأيام، ولكن معظمهم كان، نوعًا ما، معروفًا لأن صورهم كانت تُنشر في الصحف من وقت لآخر وهم يقومون بأنشطة، مثل حضور الحفلات الخيرية أو تقديم الجوائز. ولم تتذكَّر أنها رأت هذا الرجل من قبلُ في أيٍّ من هذه الصور، ومع ذلك …

قال الزائر: «تتساءلين مَن أنا يا سيدتي. تسألين نفسك مَن يكون هذا الرجل؟ هذا ما تفكِّرين فيه، أليس كذلك؟»

تعجَّبت السيدة راموتسوي لحظة. وألقت نظرةً خاطفة على السيدة ماكوتسي، التي كانت مشغولة بالغلَّاية. فابتسمت السيدة ماكوتسي.

أجابت السيدة راموتسوي: «بلى يا سيدي. أشعر أنني أعرفك، لكنني لا أعرف مَن تكون، إن كنت تفهم ما أعني. فوجهك هو أحد هذه الوجوه …»

قاطعها الرجل: «المألوفة جدًّا. نعم، هذا صحيح. لديَّ وجهٌ عادي جدًّا.»

قالت السيدة راموتسوي بسُرعة: «هذا ليس ما كنتُ سأقوله يا سيدي. بل أنت رجل أنيق جدًّا.»

استقبل الزائر الإطراء بإيماءةٍ من رأسه. وقال: «اسمي موتالهودي جيفيلي.» وتوقَّف، كأنه ينتظر ردَّ فعل. لكن الاسم لم يعنِ شيئًا للسيدة راموتسوي، التي ابتسمت له بأدب.

فتابع: «من فريق جابورون كوميتس.»

عند هذا، ضربت السيدة راموتسوي يديها معًا. وقالت: «أعرفك يا سيدي! بالطبع أعرفك!»

فابتسم السيد جيفيلي. وقال: «أنا سعيد بمعرفة أنكِ مهتمَّة بتشجيع فِرَق كرة القدم يا سيدتي. فبعض النساء …» وهزَّ كتفيه، كأنه يُعلِّق على عجز النساء عن فهْم أحد ألغاز الرجال.

قالت السيدة راموتسوي: «أوه، أنا لست مهتمَّة بتشجيع فِرق كرة القدم. في الواقع أنا لا أعرف شيئًا عن كرة القدم يا سيدي. لا أعرف شيئًا على الإطلاق!»

رفع السيد جيفيلي حاجبه. وقال: «ولكنكِ تعرفينني؟»

كانت السيدة ماكوتسي قد أعدَّت إبريقًا من شاي الأعشاب، وحينئذٍ أحضرت فنجانين على صينية الشاي وقدَّمت فنجانًا للسيد جيفيلي. وقالت له: «أنا أعرفك يا سيدي. لقد قرأتُ كلَّ ما كُتِب عنك في الصحف. أنت الرجل الذي اشترى فريق كوميتس، ومن يومها وأنت تحاول تعزيزه وتقويته بكل السُّبل.»

أخذ السيد جيفيلي فنجان الشاي. وقال: «إنه لطفٌ منكِ أن تقولي هذا يا سيدتي. نعم، أنا الرجل الذي اشترى الكوميتس. أنا ذلك الرجل.»

قدَّمت السيدة ماكوتسي فنجان الشاي الآخر للسيدة راموتسوي. وأردفت قائلة: «نعم، والجميع سعيد بما فعلت؛ لأن الكوميتس مُتألِّقون الآن. لديك ذلك الحارس الماهر، أليس كذلك؟»

فألقت السيدة راموتسوي نظرةً خاطفة على السيدة ماكوتسي. كان هذا غريبًا. فلم تُبدِ السيدة ماكوتسي من قبل أيَّ اهتمام بكرة القدم، وها هي ذي تتحدَّث عن أحد حراس المرمى مع السيد موتالهودي جيفيلي صاحب فريق جابورون كوميتس. كانت قد قالت للسيدة ماكوتسي من قبلُ إنه ينبغي للمحقق الماهر أن يكون قادرًا على الاندماج مع مُحيطه، وهذا يتضمن القدرةَ على الحديث عن الأشياء التي يتحدَّث عنها الآخرون. أليس من المؤكد أن النتيجة المعاكسة ستتحقَّق إذا تحدَّثت امرأة عن كرة القدم؟ فالنساء ببساطة لا يتحدَّثن في مثل هذه الموضوعات، قالت السيدة راموتسوي هذا في نفسها. ولكن بعد ذلك خطر ببالها فكرة: هل تفكيري لا يُساير العصر؟

فقالت فجأة: «لم أكن أعلم أنكِ مهتمة بكرة القدم يا سيدة ماكوتسي. هذه مفاجأةٌ لي.»

تردَّدت السيدة ماكوتسي لحظة؛ ثم ابتسمت ابتسامةً خجلى، كما رأتها السيدة راموتسوي. ثم قالت: «أنا لا أعرف الكثير عن كرة القدم. ولكن هناك بعض الناس الذين لديهم معلومات أقل مني عنها.» كان من الجليِّ أن هذا التعليق الأخير تُقصَد به السيدة راموتسوي، التي تقبَّلته بسعة صدر. فقد كانت تعرف أنه في بعض الأحيان يكون الأمر صعبًا على السيدة ماكوتسي كونها مجرد مساعِدة لمحقِّقة، في حين أنها حصلت على درجاتٍ عالية جدًّا من كلية بوتسوانا للسكرتارية. حقَّقت السيدة ماكوتسي الدرجة التي لم يُسمَع بها من قبل، وهي ٩٧ في المائة في الامتحانات النهائية في الكلية، ولم تتردَّد قط في تذكير الناس بهذا الإنجاز. ولكن يجب أن يُسمح لها — وهو ما تستحقه — بقليل من التفاخُر.

ترى السيدة راموتسوي أننا جميعًا فخورون بشيءٍ ما. فالسيدة ماكوتسي فخورة بدرجاتها. والسيد جيه إل بي ميتكوني فخور بأنه قد وقع الاختيار عليه لصيانة السيارة الرسمية البيضاء للمُفوِّض البريطاني العالي. والسيدة بوتوكواني، مشرفة مزرعة الأيتام، فخورة بأن العديد من الأطفال الذين عاشوا في دار الأيتام نجحوا في دراستهم المدرسية، وعثروا على وظائفَ جيدة، وعادوا لزيارتها بصحبة أطفالهم. أما المُتدرِّبان الاثنان في المرأب، فلا بد أنهما فخوران بشيءٍ ما، مع أن السيدة راموتسوي وجدت صعوبة، نوعًا ما، في التوصُّل لما يمكن أن يكون هذان المتدربان فخورَيْن به بالضبط.

كان السيد جيفيلي ينظر إلى السيدة ماكوتسي بتقدير. وقال: «أجل، هذا صحيح جدًّا يا سيدتي. لدينا حارس مرمًى رائع. يُدعى جيمس بيكاني، وهو ماهر جدًّا في حراسة المرمى. إنه مثل الأسد!» وتوقَّف لحظة، كأنه يستمتع بالصورة. وأردف: «نعم، هو مثل الأسد الذي يحرس عرينه.»

فكَّرت السيدة راموتسوي في هذا التشبيه، مثل الأسد. وتذكَّرت قصةً مُخيفة بعض الشيء، كانت قد سمعتها في مكانٍ ما — واحدة من تلك القصص الشعبية التي كانت الجَدَّات ترويها لأحفادهن — عن فتاة تزوجت من أسد. ما الذي حدَث بالضبط؟ كان إخوة الفتاة يشتبهون في أن الرجل الذي تزوَّج أختهم كان في الحقيقة أسدًا، وقد أعدُّوا اختبارًا للتأكد من حقيقة الأمر. كانوا على حق، بالطبع، وقد واجهوا زوج أختهم المخادع، الذي اضطُر إلى الهرب تاركًا آثارَ أقدامِ أسدٍ في الرمال. والآن ها هو ذا ذلك الحارس، جيمس بيكاني، الذي قد يكون في الحقيقة أسدًا مُتنكِّرًا في ثوب آدمي …

التقطت السيدة راموتسوي فنجان الشاي واحتست السائل الأحمر الساخن. ليس كل الناس يحبون شاي الأعشاب، لكنها كانت بالتأكيد تحبه، ومن الطريقة التي يشرب بها السيد جيفيلي الآن — برشفات كبيرة متعطِّشة — بدا أنه مستمتعٌ به هو الآخر. أشارت السيدة راموتسوي إلى السيدة ماكوتسي بإعادة ملء فنجان الزائر.

قال السيد جيفيلي: «هذا الشاي جيد جدًّا.» وتوقَّف لحظة، ومسح فمه بمنديل أبيض أخرجه من جيب بذلته العلوي. كانت حركة غريبة بعض الشيء بالنسبة لرجل في بِنيته. ولم يكن هذا ما كان متوقَّعًا من صاحب فريق كبير لكرة القدم.

قرَّرت السيدة راموتسوي حينها أنه قد مرَّ وقتٌ كافٍ في الدردشة. بالطبع، لم يكن من الذوق التحدُّث في شئون العمل فور وصول العميل، لكنه ليس أيضًا من الذوق أن تجعل شخصًا ينتظر.

فسألته: «هل هناك شيء تود إخبارنا به يا سيدي؟ هل هناك شيء يمكننا القيام به لمساعدتك؟»

أعاد السيد جيفيلي منديله في جيبه. وبدأ في الحديث قائلًا: «حسنا يا سيدتي، هناك شيء تستطيعان القيام به. فكما تريان، فريقي يخسر مباريات كرة القدم.»

تنهَّدت السيدة راموتسوي. فلم تكن رياضية — فقد كانت بنيتها الجسدية دائمًا ما تجعل من ذلك أمرًا غير مُرجَّح — لكنها كانت تعرف ما يكفي عن الرياضة لتدرك أنه لا بد أن يفوز فريق ويخسر الفريق الآخر. فلم تكن هناك رياضة، على حد علمها، يفوز فيها الجميع. فإذا كان هذا هو الحال، فلماذا يشتكي الناس إذا خسروا أحيانًا؟

فقالت بصوتٍ هادئ: «يجب أن يخسر أحدُ الفريقين يا سيدي. ولا يمكن أن يكون هناك فائزان. فدائمًا سيفوز فريق ويخسر الآخر.»

هزَّ السيد جيفيلي رأسه باستياء. وقال: «نعم، نعم، بالطبع أفهم ذلك. لكن عندما يخسر فريق، فثمة سببٌ وراء ذلك. لا يخسر أحد من دون سبب على الإطلاق. قد يوجد لاعب في الفريق لم يؤدِّ دوره جيدًا كما يفعل عادةً. وسوف تلاحظين ذلك، ويمكنك التحدث إليه وإخباره بأخطائه. وإذا لم يتحسَّن مستواه، يمكنك حينها إبعاده من الفريق. هذا ما يحدث في مثل هذه الحالات.»

فكَّرت السيدة راموتسوي في هذا لحظة. وسألت: «إذن، مَن هو هذا اللاعب؟ مَن هو هذا اللاعب الذي يتسبَّب في خسارة فريقك؟»

للحظة، لم ينبِس السيد جيفيلي ببِنت شَفَة. كان ينظر إلى يديه اللتين كانتا مطويَّتَين فوق حِجره. ثم تمتم: «جيمس، جيمس بيكاني، حارس مرمى الفريق.»

قطَّبت السيدة راموتسوي جبينها. وقالت: «إذن، فهو ليس بالمهارة التي ظننتها من الأساس.»

فتحمَّس السيد جيفيلي. وقال: «بل هو ماهرٌ. لكن كلُّ ما في الأمر هو أنه ...» وتوقَّف عن الكلام ونظر إلى يديه مرةً أخرى.

قالت السيدة راموتسوي: «ماذا؟».

فأردف السيد جيفيلي: «يترك الكرة تدخل في الشِّباك. لا يحدث هذا طوال الوقت. فهو حارس مرمًى عبقري معظم الوقت، لكنه في بعض المباريات، ينهار. أنا متأكد أنه يفعل ذلك عمدًا.»

سحبت السيدة راموتسوي نفَسًا عميقًا. فحتى مع معرفتها القليلة بالرياضة، كانت تعرف أن هذا أسوأ شيء يمكن أن يفعله لاعب. كانت ترى أنه نوع من الخيانة؛ فقد كان اللاعب يخذل الفريق بأكمله. وبالطبع، يكون السبب في ذلك عادةً هو المال.

وقالت: «يوجد بالتأكيد مَن يدفع له الأموال نظيرَ فعل ذلك. ألا تعتقد أن هذا هو السبب الأكثر احتمالًا يا سيدي؟»

فأومأ السيد جيفيلي برأسه. وقال: «نعم، أعتقد أن هناك شخصًا يدفع له المال يا سيدتي. لكن كيف يمكنني أن أتأكد؟ كيف يمكنني أن أثبت ذلك؟»

ازدادت ثقةُ السيدة راموتسوي فجأة. فالأمر لا يتعلَّق بالرياضة؛ بل يتعلق، ببساطة، بالجشع البشري، وهذا ما شهدته كثيرًا. الآن هي في موقف مألوف لها، والآن جاء دور المحقِّق الخاص.

فقالت: «هل تريد مني أن أستطلع الأمر، يا سيدي؟» وأردفت: «هل تريد مني أن أكتشف إذا ما كان يحصل على المال؟ لقد فعلتُ هذا من قبل. فهناك طرق لمعرفة ذلك.» بالفعل كانت هناك طرقٌ، معظمها مباشر. فالأشخاص الذين يُرشَون بمبالغ كبيرة عادةً ما يكشفون عن أنفسهم بإنفاق تلك المبالغ الكبيرة. هؤلاء الأشخاص كانوا، بطبيعتهم، منفقين وليسوا مُدَّخِرين. كان إنفاقهم غالبًا ما يكون واضحًا؛ بشراء السيارات الفارهة، على سبيل المثال.

أجاب السيد جيفيلي: «نعم. أود أن تبحثي لي في تلك المسألة يا سيدتي. فبمجرد أن أحصل على الدليل، يمكنني أن أتصرف بناءً عليه. ولكن، قبل أن يحدث ذلك، لا أستطيع فعل شيء، فهو يتمتع بشعبية واسعة.»

أومأت السيدة راموتسوي برأسها. وسألته: «هل لديه سيارة؟»

بدا السيد جيفيلي مندهشًا من السؤال. وأجاب: «نعم. لديه سيارة بالطبع.»

سألت السيدة راموتسوي: «وما نوع تلك السيارة التي يملكها؟»

أجاب السيد جيفيلي: «إنها سيارة قديمة، ليست مميَّزة في شيء.»

بدا الإحباط على السيدة راموتسوي. ربما لن يكون الأمر بسيطًا كما كانت تعتقد.

الفصل الثاني

قال السيد جيه إل بي ميتكوني، زوج السيدة راموتسوي، في ذلك المساء: «حسنًا يا سيدة راموتسوي. لقد كان لديكِ زائر مهم جدًّا هذا الصباح، أليس كذلك؟»

لم يكن من عادة السيدة راموتسوي أن تتحدَّث عن شئون عُملائها. ولكن الأمر كان مختلفًا مع السيد جيه إل بي ميتكوني. فعلى الرغم من أنه لم يكن من موظفي الوكالة، فقد كان يمتلك «تلوكوينج رود سبيدي موتورز»، التي يقع مقر «وكالة التحريات النسائية الأولى» في إحدى غُرفها الفارغة. وهذا يعني أنه كان دائمًا على دراية بما يحدث في الوكالة، حتى لو لم يخبره أحد بشيء. لذا فقد استمع الآن السيد جيه إل بي ميتكوني بعناية إلى زوجته وهي تحكي له عن مشكلة حارس مرمى فريق الكوميتس، جيمس بيكاني، الذي تسبَّب أداؤه ذو المستوى المتأرجح إلى خسارة فريقه في عدة مباريات.

سأل السيد جيه إل بي ميتكوني، وهو يهزُّ رأسه في استنكار: «هل يترك الكرة تدخل الشِّباك؟ هذا سيئ للغاية.»

فاتفقت السيدة راموتسوي مع ما قاله. وقالت: «المال يفسد بشدة. فالبشر على استعداد لفعل أي شيء من أجل المال. لا أتحدَّث عن جميع الناس، بالطبع، ولكن بعضٌ منَّا يفعل ذلك.» وبينما كانت تتحدَّث، فكَّرت في الأشخاص الذين لن يقبلوا رشوة أبدًا، تحت أي ظرف، وعلى رأس تلك القائمة، بالطبع، كان السيد جيه إل بي ميتكوني.

فكَّرت السيدة راموتسوي في القضية في تلك الليلة، وهي مُستلقِية في فراشها، في انتظار أن تستغرق في النوم. إذا كان جيمس بيكاني يتلقى رشوةً للسماح بدخول الكرة في شِباك فريقه، فإن هناك طريقتين لتناول المشكلة. الأولى هي معرفة مَن يستفيد من الفوز المتحقَّق، ومحاولة القبض عليهم متلبِّسين، والطريقة الأخرى هي تتبُّع المال. ستكون الطريقة الأولى صعبة جدًّا. فالمشتَبَه به الواضح هو إدارة الفريق الفائز، ولكن ثمة أمور من شأنها أن تجعل القضية مُعقَّدة.

ففي مجرى حديثهما في وقت سابق من ذلك اليوم، أوضح السيد جيفيلي أن جيمس كان يترك الكرة تدخل شِباك فريقه في عدة مباريات، وفي كل مباراة منها كان فريق كوميتس يلعب ضد فريق مختلف. فلماذا يرغب شخص واحد في أن يخسر فريق الكوميتس سلسلة من المباريات، وليس فقط المباراة التي يواجه فيها الكوميتس الفريق الخاص بمن دفع الرشوة؟ أو هل سيصب في مصلحة شخصٍ ما أن يخسر فريق الكوميتس المباريات عمومًا؟

كلما فكَّرت السيدة راموتسوي في القضية ازداد الأمر تعقيدًا أمامها. وكلما ازداد الأمر تعقيدًا بدا لها العثور على جواب بسيط أقلَّ احتمالية. قد يستغرق هذا أسابيع، أو حتى أشهرًا، من التحقيق، وحتى بعد هذه الفترة قد لا تتوصَّل إلى حل.

ازدادت ثقة السيدة راموتسوي في نفسها في اليوم التالي عندما جلست في شُرفتها بعد وقت قصير من الشروق، تشرب فنجانها الأول من شاي الأعشاب في الصباح. كانت هذه

هي اللحظات المفضَّلة لها في اليوم، اللحظات التي يتجدَّد فيها العالم، عندما يكون الهواء منعِشًا ونقيًّا، لا يشوبُه سوى رائحةٍ خفيفة لاحتراق الحطَب في مِدفأة أحدهم. لقد قرَّرت أن أفضل طريقة للتعامُل مع هذه القضية هي الطريقة التي تتعامل بها مع كل قضاياها؛ مباشرةً.

شعرت أنه من الصعب جدًّا أن تعرف مَن يرشو الحارس. لذا بدلًا من محاولة معرفة ذلك ستتعرف على جيمس بيكاني نفسه؛ هذا ما ستفعله اليوم. فستذهب لمقابلته. ستفكِّر في سببٍ لزيارتها، وبمجرد أن تجده ستعتمد على أقوى سلاح لديها — الحَدْس — لمعرفةِ ما يجب القيام به بعد ذلك. سيكون عليها أن تتعامل بحذَر، بالطبع؛ فلا يمكن أن تسأله مباشرةً إن كان يتلقى رشوة أم لا. ولكن هناك طرقٌ أخرى لمعرفة هذه الأمور. يمكنك معرفةُ ما إذا كان شخصٌ ما صادقًا أم لا من خلال مراقبة عينيه. فالأمر ليس صعبًا.

في المكتب ذلك الصباح، بينما كانت هي والسيدة ماكوتسي تفحصان بريد اليوم، سألت السيدة راموتسوي مساعدتها عمَّا تعرفه عن جيمس. بدأت حديثها قائلة: «أنتِ الوحيدة التي تبدين كأنها تعرف كلَّ شيء عن كرة القدم. أو على الأقل تعرفين كل شيء عن جيمس بيكاني هذا. أو هكذا قلتِ.»

قالت السيدة ماكوتسي مُصحِّحة: «لم أقُل إنني أعرف كلَّ شيء. قلت فقط إنني أعرف أنه هو حارس الفريق. وأعرف فتاة كانت صديقته يومًا ما. ومن هنا عرفت معلوماتي.»

مالت السيدة راموتسوي إلى الأمام. كانت هذه الملاحظة من السيدة ماكوتسي، هذه الإشارة العرَضية إلى صديقةٍ، هي الذريعة التي كانت بحاجة إليها لمقابلة لاعب كرة القدم.

فسألت: «ومَن تكون هذه الصديقة؟»

قامت السيدة ماكوتسي بتعديل وضع نظاراتها ذات العدسات الكبيرة المستديرة التي كانت تضعها. لقد كانت تستمتع بنقل المعرفة، وكانت تفعل ذلك وكأنها معلِّمة تشرح أمورًا واضحة لفصلٍ من التلاميذ المحدودي الذكاء. وأجابت: «إنها تُدعى أليس. وهي تعمل في متجر للأحذية في المدينة. إنه متجر رائع، وقد أحضروا تلك الأحذية الجديدة قبل أيام. كان يجب أن تَرَيها يا سيدة راموتسوي، فقد كانت ...»

فقاطعتها السيدة راموتسوي قائلة: «نعم، نعم.» كان ضَعف السيدة ماكوتسي أمام الأحذية الأنيقة معروفًا جدًّا، وكان بإمكانها التحدُّث لساعات عن هذا الموضوع. وأردفت السيدة راموتسوي: «ولكن ماذا قالت أليس هذه عن جيمس؟ هل أخبرتكِ الكثير عنه؟»

نظرت السيدة ماكوتسي من النافذة. وقالت: «لم تقُل سوى القليل.» وتوقَّفت عن الكلام. ثم أردفت: «في الواقع، القليل جدًّا. لقد قالت إنه من لوباتسي.» وتوقَّفت عن الكلام.

ثم قالت: «قالت إنه لم يكن حبيبًا جيدًا، وإنها كانت سعيدة عندما تخلَّصت من هذه العلاقة. ربما كانت حزينة قليلًا. تعرفين كيف يكون الشعور عندما تنتهي علاقة. تشعرين بالحزن قليلًا، ثم تتحسَّن حالتك النفسية.»

أومأت السيدة راموتسوي برأسها. وقالت: «هل هذا كلُّ ما قالته عنه؟ إنه جاء من لوباتسي؟»

فكَّرت السيدة ماكوتسي لحظة. وقالت: «أعتقد ذلك.»

فسألت السيدة راموتسوي: «هل تعتقدين أنه بإمكانك معرفةُ أي معلومة أخرى يا سيدتي؟ هل يمكنك الاتصال بأليس وسؤالها؟»

أومأت السيدة ماكوتسي برأسها. وقالت: «إنها تحب الحديث. لا أعتقد أنها ستمانع في أن يتصل بها أحد في العمل.»

بينما كانت السيدة ماكوتسي تطلب رقم متجر الأحذية، كانت السيدة راموتسوي تُمسك بقلم وورقة. وفي أعلى الصفحة كتبت: جيمس بيكاني، وتحت الاسم كتبت: أتى من لوباتسي؛ كانت لديه حبيبة تُدعى أليس؛ يقود سيارة قديمة (حسب ما قاله السيد جيفيلي). هذا، فكَّرت، كلُّ ما نعرفه عنه، بجانب حقيقة أنه حارس مرمًى بارع جدًّا (أحيانًا).

حاولت السيدة راموتسوي فهْم ما قيل على التليفون بين السيدة ماكوتسي وأليس، لكنه كان من الصعب فهْم المحادثة بينما لم تكن تسمع سوى طرَف واحد منها. ظلَّت السيدة ماكوتسي تكرِّر قول «آه» و«أوه»، وكانت هناك لحظة من الشهيق الحاد، هذا كل شيء. كان واضحًا، على أي حال، أن الكثير من المعلومات كانت تُجمع.

سألت السيدة راموتسوي مساعِدتها عند انتهاء المكالمة: «حسنًا؟ ماذا قالت؟»

أجابت السيدة ماكوتسي بعدم اهتمام: «ليس الكثير. فمعظم الوقت كانت تتحدث عن أخيه؛ فهي معجبةٌ به. يبدو أنه زير نساء.»

سألت السيدة راموتسوي: «وجيمس؟ ماذا عن جيمس؟»

فهزت السيدة ماكوتسي كتفيها. وقالت: «كلُّ ما قالته هو أنه كان شديد الغرور. قالت إنه الرجل الأكثر غرورًا الذي قابلته على الإطلاق. كان دائم النظر إلى نفسه في المرآة. حتى إنه كان ينظر إلى نفسه في مرآة السيارة، فقط للتحقق من أنه لا يزال وسيمًا.»

تنهَّدت السيدة راموتسوي. لم تكن هذه معلوماتٍ يمكن الاعتماد عليها. فكَّرت أن الكثير من الرجال مغرورون هذه الأيام. كان الأمر له علاقة بحرية النساء في النظر إلى الرجال بالطريقة نفسها التي كان الرجال ينظرون بها إلى النساء دائمًا. لم تكن النساء

قد أدركن ذلك، ولكن كل ما أدَّت إليه هذه الحرية الجديدة هو خلق الكثير من الرجال المغرورين.

كتبت السيدة راموتسوي كلمة «مغرور» على ورقتها ثم وضعتها جانبًا، في ملفٍ أسمته جيمس بيكاني. جلب البريد رسالة أو اثنتين تحتاجان إلى الرد عليهما، فقرَّرت أنها ستقوم بذلك الآن، وستُملي على السيدة ماكوتسي ردودَها. وفي وقت لاحق، ستعود إلى السؤال حول كيف يمكنها معرفة المزيد عن جيمس بيكاني قبل أن تذهب لمقابلته.

انتهت السيدة راموتسوي من الرد على الرسائل بحلول وقت استراحة الشاي في منتصف فترة الصباح. كان صباحًا بديعًا، ليس حارًّا جدًّا، وفكَّرت أن تشرب الشاي مع السيد جيه إل بي ميتكوني وصبيَّين يعملان تحت إمرته. فقد كانوا يحبون الجلوس على جانب المرأب وشرب الشاي هناك، وكان هذا مكانًا مثاليًّا في يوم مثل هذا.

أخذت السيدة راموتسوي فنجان الشاي في يدها، وتفحَّصت المشهد. كان السيد جيه إل بي ميتكوني جالسًا، رجلاه ممدودتان، على مقعد سيارة قديم كان قد سنده إلى جدار المرأب، بينما كان الصَّبيَّان يجلسان على برميلي نفط مقلوبين. وانضمت السيدة راموتسوي إليهم، وجلست على صندوقٍ كانت تستخدمه مقعدًا عندما تشرب الشاي مع الميكانيكيين.

نظرت إلى تشارلي، الصبي الأكبر سنًّا. كان ينظر إلى السماء، مبتسمًا لشيءٍ ما، وتساءلت عما كان هذا الشيء. تخيَّلت أنه ربما كان فوز أحد فِرق كرة القدم ... ثم خطرت ببالها فكرة.

قالت: «تشارلي، هل سمعتَ عن حارس مرمًى يُدعى جيمس بيكاني؟»

فأفاق تشارلي من حُلم يقظته، ونظر إلى السيدة راموتسوي بدهشة. وقال: «بالطبع سمعت عنه. فالجميع يعرفون جيمس. إنه لاعب ماهر حقًّا. مع أنه مؤخرًا أصبح بلا فائدة. ربما قد تقدَّم في العمر. ربما فقد الشغف باللعبة.»

انضم الصبي الأصغر سنًّا إلى الحديث قائلًا: «لقد انتهى. والجماهير تغضب منه أحيانًا، كما تعرفين. ويصرخون بشتائمَ بذيئة. ويصيحون قائلين إنه أصبح رجلًا عجوزًا، وإنه بحاجة إلى ارتداء نظارة أو إنه نسي كيف يلعب كرة القدم. إنهم يجعلونه في موقف صعب.»

كانت السيدة راموتسوي تُولي انتباهًا جزئيًّا لِما كان الصبي الأصغر سنًّا يقوله. ثم وقفت، وسكبت بعض الشاي وهي ما زالت منتبهة لما يُقال.

سأل السيد جيه إل بي ميتكوني: «هل أنتِ ذاهبة إلى مكانٍ ما؟» وتابع: «فأنتِ لم تنتهي من شرب الشاي.»

أشارت السيدة راموتسوي إشارةً غامضة بيدها التي لا تُمسك بها الفنجان. وقالت: «يجب أن أخرج. هناك شخص يجب أن أتحدَّث إليه.»

داخل المكتب، وجدت السيدة ماكوتسي وهي لا تزال تشرب الشاي وتتصفَّح مجلة أزياء؛ كانت المجلة مفتوحة عند صفحةٍ معروضة فيها أحذية. فكَّرت السيدة راموتسوي في أن هذا تحديدًا هو ما تستمتع به السيدة ماكوتسي.

فقالت لها: «سيدة ماكوتسي. هل تَودِّين المجيء معي للتحدث مع جيمس بيكاني؟»

لم تحتَج السيدة ماكوتسي إلى الإقناع، وسرعان ما كانت هي والسيدة راموتسوي في طريقهما معًا في العربة البيضاء الصغيرة. وتوجَّهتا إلى العنوان الذي أعطاهما إياه السيد جيفيلي في اليوم السابق، إلى المنزل الذي يقطنه السيد جيمس بيكاني. لاحظت السيدة راموتسوي أن مَسكنه لم يكن أنيقًا. كان منزلًا صغيرًا على أطراف أولد ناليدي، منزلًا لا يبدو عليه أنه المنزل الخاص بلاعب كرة قدم شهير، فضلًا عن لاعب يتلقى رُشًا بمبالغَ كبيرة.

فتحت امرأة في منتصف العمر البابَ عندما طرقته السيدة راموتسوي. ونظرت إلى زائرتيها للحظة، ثم رحَّبت بهما بلطف بالطريقة التقليدية.

قالت السيدة راموتسوي: «أنا آسفة لإزعاجك يا سيدتي. أنتِ بالتأكيد والدة جيمس. وهو مَن نودُّ التحدُّث إليه.»

أومأت المرأة برأسها. وقالت: «هذا منزله، وأنا أمه.» وتوقَّفت، كأنها تتساءل في نفسها ما إذا كان يجب أن تدَع امرأتين غريبتين تدخلان لمقابلة ابنها. ثم أردفت: «إنه يستريح الآن. هل هو أمر مهم؟»

لم تتردَّد السيدة راموتسوي. وقالت: «إنه أمر مهم جدًّا.»

أومأت المرأة برأسها. وقالت مشيرة لهما أن تتبعاها: «يمكنكما الدخول، تفضَّلا.» وتابعت: «يمكنكما الجلوس هنا، وسأستدعيه.»

جلست السيدتان في الصالة الصغيرة، التي كانت تُستخدَم غرفةَ طعام ومطبخًا أيضًا. نظرت السيدة راموتسوي حولها، كما كانت تفعل دائمًا عند دخولها غرفةً لأول مرة. لاحظت التقويم المعلَّق على الحائط، الذي كان به إعلانٌ لأحذية كرة قدم؛ ولاحظت الخزانة المتهالكة التي تعرض الكئوس الرياضية المدرسية مُرتَّبةً على الرفوف؛ ولاحظت الصورة القديمة لصبي في زي الكشافة وعلى صدره شارة. رأت بعض الأشياء الأخرى، وكل ما رأته أخبرها أن هذا ليس منزل رجل يتلقى رُشًا.

وبعد بضع دقائق، ظهر جيمس بيكاني. بدا كأنه كان نائمًا؛ فعيونه كانت منتفخة والقميص الذي كان يرتديه كان مُجعَّدًا. وقفت السيدة راموتسوي وحيَّته. ثم قدَّمته إلى السيدة ماكوتسي التي شعرت بالإثارة من رؤية شخص مشهور فلم تستطِع منع نفسها من الانحناء قليلًا تقديرًا له.

سأل جيمس بيكاني: «كيف يمكنني أن أخدمكما؟»

بدت السيدة راموتسوي محرَجة. وأجابت: «مجرد توقيعك يا سيدي. هذا سيكون كافيًا.»

فضحِك جيمس بيكاني. وقال: «أوه، هل هذا كل شيء؟ حسنًا، نحن بالطبع بحاجة لإرضاء المعجَبين!»

قالت السيدة راموتسوي: «هذا لطفٌ كبير منك يا سيدي. لقد أحضرت لك دفترًا صغيرًا لك لتُوقِّع فيه، وقلمَ رصاص أيضًا.»

مدَّت يدها بدفتر أسود صغير، فأخذه منها. ثم بحثت في الحقيبة التي كانت معها عن القلم الرصاص، وأخرجته.

قالت: «هاك يا سيدي. التقِطه.»

وألقت القلمَ الرصاص نحو جيمس بيكاني. فمدَّ اللاعب يده، لكن يده كانت بعيدة جدًّا عن القلم الرصاص، فسقط القلم على الأرض.

فقالت السيدة راموتسوي وهي تنحني لاستعادة القلم الرصاص: «أنا آسفة يا سيدي. ها هو ذا القلم.»

الفصل الثالث

اتصلت السيدة راموتسوي بالسيد جيفيلي في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم ودَعته للمجيء إلى المكتب. وقالت له إن لديها أخبارًا مهمة له.

فسألها: «هل حللتِ القضية؟ أبهذه السرعة؟».

فأجابت السيدة راموتسوي: «نعم، تعالَ إلى المكتب وسأخبرك بكل شيء.»

وصل السيد جيفيلي بسرعة. وبينما كان يجلس وأمامه فنجان من شاي الأعشاب، أخبرته السيدة راموتسوي بالأخبار السعيدة.

قالت له: «إن حارس مرمى فريقك ليس فاسدًا.»

بدا السيد جيفيلي مُتَشككًا. وسألها: «هل أنتِ واثقة من ذلك يا سيدتي؟»

فابتسمت السيدة راموتسوي. وقالت: «أنا واثقة جدًّا. إنه ليس فاسدًا، إنه قصير النظر فحسب.»

بدا السيد جيفيلي مُتحيرًا. وقال: «لا أفهم.»

قالت السيدة راموتسوي: «الغرور الذكوري. هنا لدينا بطلٌ رياضي شديد الغرور. إنه يدرك أنه بحاجة إلى نظارة، لكن غروره الشديد يمنعه من ارتدائها. لذا لا يفعل شيئًا، على أملِ أن المشكلة ستزول من تلقاء نفسها. لكنها لم تزُل.» ثم توقَّفت السيدة راموتسوي عن الكلام لإعطاء الفرصة للسيد جيفيلي لاستيعابِ ما قالته. وتابعت: «لذا كلُّ ما عليك فِعله هو أن تتحدَّث معه. أقنِعْه بالذهاب إلى اختصاصي بَصَريات.»

حكَّ السيد جيفيلي رأسه. وقال: «هذه نتيجة شديدة الغرابة. لم يكن لديَّ أيُّ فكرة عن هذا الأمر.» ونظر إلى السيدة راموتسوي بتعجُّب. وقال لها: «من فضلك، أخبريني يا سيدتي. كيف اكتشفتِ ذلك؟»

فأجابت السيدة راموتسوي: «كان أمرًا بسيطًا. لقد استمعت، ونظرت. قال أحد هذين الصبيَّين شيئًا جعلني أُفكر. وبمجرد أن فكرتُ، تصرَّفت.»

سأل السيد جيفيلي: «ماذا فعلتِ؟»

أجابت السيدة راموتسوي: «ألقيت قلمَ رصاص عليه، ولم يتمكن من الإمساك به.»

ظل السيد جيفيلي بضع لحظاتٍ يفكِّر فيما حدث. ثم فهِم، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

وقال: «أنتِ امرأة بارعة جدًّا، يا سيدة راموتسوي.»

قالت السيدة راموتسوي: «شكرًا لك يا سيدي. والآن، هل تريد المزيد من الشاي؟»

رياحٌ عاصفةٌ في نيفيس

يقع منزل مارلين على قمة تلٍّ يُطِلُّ على ميناء قديم في جزيرة نيفيس في البحر الكاريبي. شيَّد هذا المنزل طبيب متقاعد في أواخر الخمسينيات بحثًا عن ملاذٍ هادئ في ذلك الجزء من الجزيرة، وكان يستمتع بإقامة الحفلات فيه. اعتاد كاتبٌ أمريكي مشهور، كان يأتي إلى فيلته الفاخرة الواقعة على مسافة كبيرة من منزل مارلين على طول الساحل، حضورَ هذه الحفلات، هو وأشخاص آخرون مشهورون ولامعون كانوا يزورون الجزيرة. عُرِف الطبيب بكرمه، وبتحضيره لمشروب الروم الرائع.

وعندما توفي الطبيب، لم يعتنِ ابنه بالمنزل، فأصبح المنزل مُهمَلًا. كان من المفترض أن يسيطر بُستانيٌّ على زحف النباتات الكثيفة، التي تشبه الغابة التي تغطي التل، إلى المنزل، ولكن نظر هذا البُستاني كان ضعيفًا، وازداد ضَعفًا بمرور الوقت. فإما أنه لم يرَ النباتات الزاحفة التي بدأت تُغطي الشُّرفة، أو أنه تجنَّب خوض معركة غير متكافئة بالتأكيد. فالنباتات تنمو بسرعة هناك. ثم هبَّت الرياح العاصفة — «النسيم» كما يطلِق عليها السكان المحليون — التي تقتلع الأشجار والأغصان، وهطلت الأمطار الغزيرة الدافئة التي تتسبب في انسداد مصارف المياه.

وعندما عُرِض المنزل للبيع في النهاية، لفت انتباه زوجين كانا يقودان سيارة فولكس فاجن قديمة على طول الطريق الساحلي. كان الرجل هولنديًّا ضئيلَ الجسم وعادي المظهر إلى حدٍّ ما. أما المرأة، التي كانت أكثرَ منه طولًا وأقوى منه بنيةً، فقد كانت من ترينيداد ومن أصل مختلَط.

كانا قد التقيا في نادٍ في ميامي، «ذا بلو كوكتيل»، وقرَّرا أن يرتبطا ويعيشا معًا. ماركوس، الهولندي، قضى عشر سنوات يعمل مُعلمًا في جزيرة كوراساو، وأراد العيش في

الكاريبي. أما جورجينا، التي جاءت من ترينيداد، فكانت غير متأكدة من أنها تريد العودة، لكنها أرادت السفر مع ماركوس. والآن، ورغمًا عنها إلى حدٍّ ما، كانت تقع في الحب مرة أخرى مع عالَم تركته بكل حماس منذ فترة ليست ببعيدة.

كانا قد رأيا منزل الطبيب المتقاعد من الطريق أدناه؛ حيث كانا يستطيعان بصعوبةٍ رؤية قمة سقفه فقط. فقامت جورجينا، التي كانت تقود الفولكس فاجن القديمة، بالانعطاف بدون سابق تفكير إلى الطريق الضيق المليء بالحُفر الذي يؤدي إلى قمة التل.

قالت: «مَن يدري. قد نرى لافتة «للبيع» عندما نصل إلى القمة.»

سأل ماركوس: «وبعد ذلك؟»

فقالت جورجينا فجأة: «ثم نشتريه ونحوِّله إلى فندق. ما الخيار الآخر أمامنا؟»

كان لجورجينا أسلوب تصادُمي إلى حدٍّ ما، كما لو كانت تستحث الشخص الذي تتحدث معه أن يجادلها. لقد أدرك ماركوس أن هذا السلوك لا يُخفي شخصية لطيفة؛ في الواقع، كانت بطبيعتها سريعة الغضب. ومع ذلك، كان مفتونًا بها بشدة وكان يرفض قبول أي انتقاد لها. قال لها: «جورجينا حبيبتي سريعة الغضب.» فردَّت جورجينا بسرعة: «ماذا تقصد بذلك تحديدًا؟»

كان عليهما قيادة السيارة ببطء على الطريق، وفي نقطةٍ ما كان على ماركوس أن يخرج من السيارة ويحاول نقل فرع شجرة سقط وسدَّ الطريق. بقيت جورجينا في السيارة، تطرق على عجلة القيادة بأصابعها وهي تشاهد جهود زوجها غير المجدية. وفي النهاية، بعد عدة دقائق بلا جدوى، خرجت من السيارة ورفعت الفرع وأزاحته إلى جانب الطريق.

قال ماركوس: «أنتِ حقًّا رائعة.»

قالت جورجينا وهي تعود إلى السيارة: «وأنت حقًّا ضعيف.»

واصلا القيادة. وهناك، على البوابة الحديدية الصدِئة عند مدخل الطريق المُؤدي إلى منزل مارلين، كانت هناك لافتة مكتوب عليها «للبيع». فأوقفا السيارة وسارا على الطريق. حلَّق زوج من الطيور الجارحة فوقهما في تيارات الهواء القادمة من فوق التل؛ وسعف نخيل جوز الهند الكبير يتحرك مثل المراوح في السماء.

قالت جورجينا: «فندقنا.»

افتتح الفندق أبوابه بعد ثلاثة أشهر. خضع المنزل، الذي أُنقِذ من الخراب في الوقت المناسب، لعمليات تجديد من الأرض إلى السقف. وأشرفت جورجينا على جميع عمليات

التجديد، كانت تنتقد النجَّارين، وتُوبِّخ مُنجِّدي الأثاث، وتصرخ في وجه الكهربائي. وكان ماركوس يعتني بشئون المطبخ: يشتري الأواني والمقالي وأفران الطهي، ويخطِّط للوصفات، ويتواصل مع مُورِّدي البيض والخضراوات.

شكا أحد النجارين لصديقه قائلًا: «تلك المرأة المتسلطة. إنها كثيرة المشكلات يا رجل. يومًا ما ستسقط جوزة الهند على رأسها!»

وقال آخر: «الجميع يخاف منها. الناس يأتون للإقامة في ذلك المكان، فيرونها وإذا بهم يركضون بسرعة، ويقفزون في البحر.»

عندما كان كل شيء جاهزًا، أو قبل ذلك بقليل، بدأ ضيوف الفندق في الوصول. كانوا مبهورين عمومًا بالغُرَف. وحبَس أنفاسَهم المنظرُ الرائع من الشرفة التي تقع فوق قِمَم الأشجار وتُطل على بحرٍ ذي لون أزرق ليس له مثيل. كان الضيوف يجلسون هناك، أقدامهم على حاجز الشرفة، النسيم الدافئ يداعب شعرهم، ويشربون كوكتيل الروم الذي يحضره النادل على صينية فِضية. وكانوا ينزلون إلى الشاطئ ويَسبحون وسط الأمواج؛ ويشاهدون قواربَ الصيد ذات الألوان الكثيرة الزاهية، تتجه نحو الأمواج، وبعد ذلك، في الأمسيات، كانت وجبة العشاء الشهية التي يخطِّط لها ماركوس بعناية تختم اليوم ختامًا رائعًا. كان كل شيء يبدو مثاليًّا، من وجهة نظر الضيوف، باستثناء الإدارة.

تتلقى إدارة الفندق بالضرورة طلباتٍ من الضيوف. لا شيء يكون مناسبًا تمامًا للجميع: سيريد أحد الضيوف مِنشَفة أكبر؛ ويتساءل آخر لماذا لا توجد ثلاجة في الغرفة؛ وهكذا. عادةً ما يستمع أصحاب الفنادق العاديين لهذه الشكاوى ويبذلون جهدًا للتعامل مع المشكلة. قد يقدِّمون مناشفَ أكبر، أو على الأقل يَعِدون الضيوف بها. ويمكن مناقشة إمكانية إضافة الثلاجات، حتى لو لم يكن ذلك ممكنًا بالفعل. المهم في الأمر، كما يؤكد أيُّ صاحب فندق، هو أن الضيف يشعر أن طلبه معقول، وأنه ستُتخذ إجراءات لتلبية هذا الطلب.

لكن في منزل مارلين كان الوضع مختلفًا. فقد كانت ردة فعل جورجينا على ضيفٍ أراد ثلاجة في غرفته هي: «لماذا تحتاج إلى ثلاجة؟»

«لأن الحليب يتخثَّر بسرعة في هذا الحر. وأنا أحب تحضيرَ فنجان من الشاي في الغرفة.»

«هناك الكثير من الحليب في المطبخ. اذهب واطلبه من هناك.»

«حسنًا، هل يمكننا على الأقل الحصول على بعض البسكويت في الغرفة؟ لتناوله كوجبة خفيفة؟»

«الطعام في الغرف يجلب الصراصير.»

كانت سيرة جورجينا بوصفها امرأةً فظَّة الطباع تزداد. كتب أحد المعلِّقين المهتمين بالسفر «إنه مكان رائع، يستحق الزيارة إذا كنت في ذلك الجزء من الكاريبي. الغرف مُريحة والمأكولات المُعدَّة على الطراز الكاريبي لذيذة. لكن لا تحاول التعامل مع الإدارة في أي مسألة.»

لم تتسبَّب هذه التعليقات إلا في إثارة فضول الناس، وبدأ الناس في اختيار الفندق لتجربة تعامُل جورجينا الفريد من نوعه بأنفسهم. ولم يشعروا قط بخيبة الأمل. في الواقع، كانوا يجدون مُتعة في الإحراج الناجم عن أي طلب أو اقتراح غير مناسب. واكتسب الفندق شهرةً أسطورية.

كان من الممكن محاكاة تعبير وجه جورجينا الشهير بالاستياء على مائدة العشاء، لكن لم يتمكن أحدٌ من الوصول إلى تعبير مكافئ على الإطلاق. وكانت تعبيراتها العاصفة، عندما كانت نزيلة متهوِّرة بما فيه الكفاية تطلب من ماركوس أن يُراقصها في وسط حفلة، موضوعًا للنقاش عدةَ أشهر.

في نهاية السنوات الخمس الأولى لهما في الفندق، قرَّر ماركوس وجورجينا إقامة حفل رأس السنة للاحتفال بنجاح الفندق والاحتفال ببداية السنة الجديدة. انتشر الخبر، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تُحجز جميع الغرف لعُطلة السنة الجديدة. وأثناء مراجعة الحجوزات، ابتسم ماركوس بسرور عند التفكير فيما سيفعله هذا بوضع الفندق المالي، لكن جورجينا تجهَّمت. ومع أنها لم تعترف لماركوس بهذا، كان النزلاء يُزعجونها. فقد كانوا اعتماديِّين جدًّا، وعاجزين للغاية. كانوا يطلبون طلباتٍ غبية. ولم يبدوا البتة راضين عما يُقدَّم لهم. كان حديثهم مُملًّا، وبدت أسئلتهم طفولية تمامًا.

قالت ذات يوم: «إذا سُئلتُ مرة أخرى عن تلك الطيور الطنَّانة، فسأصرخ.» وعندما سألها النزيل التالي: «ما هذه الطيور الصغيرة الجميلة ذات الذيول الطويلة؟ تلك التي تحوم أمام الزهور؟ انظري، هناك واحد الآن!» فأجابت: «إنها نسور صغيرة» ونكصت على عقبيها.

قال ماركوس، الذي كان شاهدًا على الموقف: «لقد كنتِ فظَّة بعض الشيء.»

قالت جورجينا، بوجهها غير المشجِّع الذي كان يمثل جزءًا كبيرًا من شخصيتها: «لا تتحدث معي عن ذلك. لا تفعل.»

لم يحضُر حفل رأس السنة نزلاء الفندق فحسب، بل أيضًا سكان المنطقة. وتذكَّر بعض الضيوف الطبيب المتقاعد وحفلاته، والكاتب الأمريكي الذي كان يحضُر هذه الحفلات. وقالوا: «كان سيُحب هذا. لقد كان يحب الحفلات.»

فقالت جورجينا: «كان رجلًا بغيضًا.»

«أوه، هل قابلتِه من قبل؟»

«بالتأكيد لا.»

كانوا قد أحضروا فرقة موسيقية من ثلاثة أفراد من البلدة، وعزف الموسيقيون في الشرفة بينما وقف الحاضرون على طول سور الشرفة يشاهدون أضواء البلدة من الأعلى والبحر الذي وراءها. كانت ليلة عاصفة، لكن الهواء كان دافئًا ومُعطَّرًا برائحة الزهور التي نمَت في القسم المواجه للرياح من الحديقة. وفي الظلام بالأسفل، كان أحد الأشخاص يُشعل، بين الفينة والفينة، صاروخًا من الألعاب النارية، ينفجر، فتتطاير شراراته في السماء مثل النجوم المتساقطة في شكل مخروطي، فيصفِّق الموجودون بالشرفة ويطلِقون الصَّفير إعجابًا بالمشهد.

بينما كان العام القديم يمضي ليحل محله العام الجديد، فُتحت زجاجات الشمبانيا وبدأ الضيوف في غناء نشيد الوداع «أولد لانج ساين»، يشبكون أياديهم ويتحركون للأمام والخلف على ألواح الشرفة التي تصدِر صريرًا. جلست جورجينا في أحد جوانب الشرفة. وبدت غاضبة لسببٍ ما، كأن نهاية العام القديم كانت إهانة شخصية لها أو خسارة خاصة.

ثم خرجت من الشرفة بمفردها، ممسكة بالكأس في يدها، ووقفت في الحديقة تحت واحد من نخيل جوز الهند المتأرجح. رآها ماركوس من الشرفة وناداها، لكنَّ هبَّة رياح قوية ابتلعت صوته. وكانت هي نفس هبة الرياح التي حرَّكت ثمرة جوز هند كبيرة، فسقطت مباشرةً على رأس جورجينا.

سُمعت صرخة من الشرفة. «جورجينا سقطت ...» ثم هرول الضيوف متوجهين إلى الحديقة. كانت جورجينا هناك، فاقدةً الوعي. فانحنت ممرضة من بين الضيوف عليها وفحصت نبضها. وقالت «لقد فقدت الوعي. خذوها إلى الداخل.»

وضعوها في السرير واتصلوا بالإسعاف. ولكن لم يُجِب أحد في الطرف الآخر؛ لذا حاولوا الاتصال بطبيب محلي. لكنه قال: «لقد كنتُ في حفلة. ولست متأكدًا إذا كنت أستطيع قيادةَ السيارة ...» لكنه وافق على القدوم، وعندما وصل بعد ساعتين، وفي وجهه جُرح سطحي لم يسأل أحد عن سببه، كانت جورجينا قد استعادت وعيها بالفعل.

قالت: «آمل أن يكون الجميع قد استمتعوا بوقتهم. لا أحب أن أكون سببًا في إفساد الحفلة.»

نظر إليها ماركوس بدهشة. واستمرت هذه الدهشة حتى الصباح التالي عندما استعادت جورجينا عافيتها وأخذت تتفقَّد الفندق وتتمنى للجميع سنة جديدة سعيدة، وتسألهم ما إذا كان هناك أي شيء يمكنها القيام به لأجلهم.

تمتم أحد الضيوف: «يبدو أن أحدهم اتخذ قرارًا للسنة الجديدة. لن تستمر هكذا.»

كان ماركوس مندهشًا من التغيير في شخصية جورجينا. وقال: «لقد أصبحت امرأة أخرى. كانت جورجينا امرأة قوية جدًّا، وشديدة الـ... حسنًا، الحزم. أما الآن فقد أصبحت ... حسنًا، نوعًا ما ... حسنًا، تعرف ما أعنيه.»

استمر الأمر على هذا النحو شهرًا على الأقل. ثم في صباح أحد الأيام، عادت جورجينا من نزهة قصيرة في حديقة جوز الهند المجاورة. فوبَّخت الطاهي، وبعد ذلك مباشرةً تكلَّمت بحدة مع أحد النزلاء، الذي أخبرها أن قهوته كانت باردة.

عند سماع هذا، شعر ماركوس بقلبه يقفز فرحًا. وفكَّر في نفسه، لقد عادت لسابق عهدها. عادت حبيبتي جورجينا سريعةَ الغضب!

نظر ماركوس من النافذة. كانت الرياح، تلك الرياح الدافئة الآتية من الغرب، قد بدأت مرةً أخرى، مما جعل نخيل جوز الهند يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف في السماء؛ تمايل النخيل بلطف، ولكن كان هذا التمايل كافيًا لتحريك الثمار، لتسقط على الأرض.

فابريزيا

لم تتمكَّن فابريزيا من تذكُّر والدتها جيدًا. في الواقع، كانت قِلقة من أنَّ تلك الذكريات الضبابية والمشوَّشة التي تحملها كانت عن شخص آخر، وأن المرأة التي كانت تفكِّر فيها كانت في الواقع عمَّةً لها تركت إيطاليا للعيش في الولايات المتحدة ولم تعُد قط.

قال والدها أليسيو: «ليس من الصعب تذكُّر الأحداث التي حدثت في عُمر الرابعة. فالكثير من الناس يتذكرون بوضوح تجاربهم في ذلك العمر. وأنا منهم. فما زلت أتذكَّر ذلك اليوم الذي سافرت فيه بالقطار من ريجيو إميليا إلى ميلان ورأيت رجلًا مبتور الساق يتسوَّل بالقرب من المدخل. أتذكَّر ذلك. وأعتقد أنكِ ستتمكنين من تذكُّر والدتك إذا حاولتِ ذلك.»

حاولت فابريزيا وأخبرت والدها أنها تذكَّرت شيئًا؛ تذكَّرت امرأة جميلة رائحتها صابون زَهري، فقال لها: «نعم! هذا صحيح! هذه هي والدتك يا حبيبتي.»

لكنها رأت صورة للعمَّة، وبدا لها أن الوجه الذي في الصورة والوجه الذي تراه عندما تحاول التذكُّر هما الشخص نفسه. لم تذكر هذا لوالدها؛ لأنه أراد بشدة أن تحمل ذكرى لوالدتها، زوجته، التي ماتت فجأة وتركته ليُربي ابنتهما بمفرده. كوَّن الأب والابنة عائلة صغيرة، لكن هذا لم يُهم. لقد عاش من أجلها، وأخبر أصدقاءه أنه على استعداد تام لأن يضحي بحياته، عدة مرات إذا لزم الأمر، لحمايتها من شرور العالم.

قال: «انظري ماذا حدث لإيطاليا. كل هذه الفوضى. أتذكَّر عندما كان هذا أكثرَ مكان آمن في العالم. لم يحدث وقتها أي جرائم. لم يحدث أي شيء.»

كان ثريًّا بمقاييس ريجيو إميليا، المدينة التي كانا يعيشان فيها. وبطبيعة الحال، تمتَّعت ميلان وبولونيا بثروات كبيرة، وكذلك بارما، مع كل رقيها. كانت ريجيو إميليا أبسطَ بكثير من المدن المجاورة المعروفة، ولكن وُجدت فرص للثراء هناك أيضًا، وقد حقَّق

نجاحًا من خلال المتجرين اللذين كان يمتلكهما في وسط المدينة، في شارع متفرع من بياتسا كافور. كان أحد هذين المحلَّين متخصصًا في بيع الأثاث والسجاد، والآخر متخصصًا في بيع ملابس السيدات القصيرات القامة والممتلئات الجسم.

قال أليسيو لأحد أصدقائه: «الآن بما أننا لدينا الكثير من الجنوبيين هنا، سيكون هناك طلبٌ كبير على الفساتين التي تناسب السيدات الممتلئات الجسم القصيرات القامة. هذه بنية هؤلاء النساء من نابولي وصقلِّية. انظر إليهن.»

فكَّر صديقه في هذا الكلام. ربما كان على حق؛ فالناس من جنوب إيطاليا كانوا أقصر من أولئك القادمين من الشمال، ولكن هذا كان بسبب نظامهم الغذائي، أليس كذلك؟ وبمجرد انتقالهم إلى الشمال، لتولي وظائفَ في المدن المزدهرة مثل ريجيو أو مودينا، سينمو أطفالهم ليصبحوا أطول بكثير. فالنظام الغذائي الجيد من شأنه أن يُحدِث فرقًا كبيرًا. الأمر يتعلق بالنظام الغذائي، وليس الجينات.

لم يكن أليسيو يؤمن بهذا. فقد كان لديه تحيُّز عميق ضد أهل الجنوب، الذين كان يعتقد أنهم مسئولون عن جميع مشكلات إيطاليا.

قال: «انظر إلى نابولي. انظر إلى النسبة المئوية للسكان الذين يشاركون في الأنشطة الإجرامية هناك. هل تعرف هذه النسبة؟ سأخبرك: ثلاثون في المائة.»

قال صديقه: «حقًّا؟ بالتأكيد ليس واحدًا من كل ثلاثة أشخاص.»

قال أليسيو: «شيء مدهش، أليس كذلك؟ فقط فكِّر في الأمر. فشخص واحد من بين ثلاثة أشخاص في نابولي يكسب رزقه من الجريمة.»

أيًّا كانت تحيزاته ضد الجنوبيين، كان أليسيو يتواصل جيدًا مع الزبائن الذين يأتون إلى متجر الملابس الخاص به. كانت السيدات القصيرات القامة اللاتي يأتين لشراء ملابس لحفلات الزفاف وحفلات التعميد أيضًا مَرِحات ومُهذَّبات، حتى إنه وجد نفسه يستمتع برفقة المساعِدات الجنوبيات اللاتي وظَّفهن. كانت هؤلاء الفتيات جميعهن على علاقة مع شباب، وكن يتحدثن عنهم طوال الوقت. كان للشباب أسماء مثل سالفاتوري أو باسكوالي، وتمتم أليسيو: «الأسماء المعتادة في نابولي. انظر إلى الأسماء في تقارير الصحف عن المحاكمات في المحاكم الجنائية. سالفاتوري هذا، سالفاتوري ذاك. إنهم مَن يرتكبون جميع الجرائم في هذا البلد. هذه أسماء شائعة!»

كانت فابريزيا معتادة هذه الآراءَ من والدها. فقد سمِعتها طوال حياتها، ولكنها لم تقتنع بها. كانت تحب الجنوبيين؛ وتحب الطريقة التي يتكلمون بها، وتحب المطبخ

الجنوبي. سمِعت فابريزيا بالفعل عن الفساد والمافيا والمشكلات الاقتصادية المستمرَّة في ميتسوجورنو، كما يطلق الإيطاليون على الجنوب، ولكن هذه المشكلات لم تكن تُهمها كثيرًا. قالت لوالدها: «لا يوجد شخص كامل. فالفساد موجود حتى في الفاتيكان، أليس كذلك؟ لا، لا تهز رأسك بهذه الطريقة. وماذا عن الديمقراطيين المسيحيين الذين تحبهم؟ ماذا رأينا خلال فترة وجودهم في السلطة؟ الصدق؟ هاه!»

لم يكن أليسيو يمانع في سماع هذه الآراء التي أعربت عنها ابنته. فهز كتفيه. وقال: «لا تُهمني آراؤك السياسية، ما دمتِ لن تتزوجي أحد هؤلاء الناس. هذا كل شيء. لا أريدك في النهاية أن تتزوجي من رجل من نابولي. فأنا لا أستطيع تحمُّل ذلك. حقًّا لا أستطيع.»

عندما أكملت فابريزيا دراستها في جامعة بارما في سن الثالثة والعشرين، عادت إلى مدينتها لمساعدة أليسيو في متجرَيه. وقد أظهرت فِطنة في عالم الأعمال، وفي غضون سنتين أصبح لديهما ثلاثة متاجر أخرى. كانت هذه المتاجر تبيع أيضًا الملابس: أحدها متخصص في بيع ملابس المراهقين، ويُمكنك سماع الموسيقى العالية عند مدخله، وآخر لبيع ملابس الأطفال، والثالث يبيع ملابس العمل؛ مثل ملابس النوادل، وتنانير الخادمات، وما إلى ذلك. ازدهرت جميع هذه المتاجر، وازداد أليسيو وفابريزيا ثراءً.

ثم في إحدى الأُمسيات، رأى أليسيو ابنته جالسة في أحد المطاعم. لم يكن هذا المطعم من الأماكن التي اعتاد دخولها، ففوجئ كلٌّ منهما برؤية الآخر هناك. وفوجئ هو بالتحديد برؤيتها جالسة مع شاب.

وقف الشاب بأدب عندما اقترب أليسيو من الطاولة، فعرف الرجل الأكبر شيئًا على الفور. عرف أن الشاب من الجنوب، من نابولي، بلا شك. كان يستطيع أن يُميز ذلك. فلم يحدث أن أخطأ في مثل هذه الأمور.

نظر أليسيو إلى السلسلة الذهبية حول عنق الشاب، والتميمة الصغيرة الموجودة في السلسلة، التي كان يُفترض أنها لدرء العين الشريرة، وهي على شكل قرن ذهبي صغير، أو كورنيتشيللو. لا يرتدي أحدٌ من الشمال مثل هذه الأشياء؛ إذ يُنظر إلى الإيمان بمثل هذه الأشياء في الشمال نظرةَ استنكار؛ فالشماليون، في رأيه، ليس لديهم الوقت لمثل هذه الخرافات؛ وهم على حق في ذلك تمامًا.

تبادل الرجلان الحديثَ على نحوٍ متوتر، في موضوعات شتى. كان الشاب يُدعى سالفاتوري، وكان يركز عينيه الخضراوين الحادتين على أليسيو. ومع ذلك، لم يتمكن الرجل الأكبر سنًّا من مبادلته تلك النظرات الجريئة. ونظر إلى ابنته بدلًا من ذلك، تقريبًا

كأنه يتوسَّل، كأنه يقول لها: «أرجوكِ أخبريني أن هذا الشاب ليس له علاقة بك، وهو مجرد صديق عابر.» ولكن بالطبع، كانت النظرة التي وجَّهتها الفتاة لأبيها تعني العكس، وعرف آنذاك، بكل تأكيد، أن هذا الشاب سيكون زوج ابنته.

لذا، لم يكن مندهشًا عندما جاءته فابريزيا بعد ثلاثة أسابيع وأعلنت أنها ترغب في الزواج من سالفاتوري. قالت: «أعرف رأيك في الأشخاص مثله. لا، لا تحاول نفي ذلك يا أبي. أنت لا تحب الجنوبيين. أنت فقط لا تحبهم. وهذا ظلم للأشخاص مثل سالفاتوري.»

نظر أليسيو إلى الأرض. كان بصعوبة يستطيع نفي صحة كلماتها؛ فهو لم يتردَّد يومًا في التعبير عن آرائه لها، حتى عندما كانت طفلة. وغرس في ذهنها، مرارًا وتكرارًا، الحاجةَ إلى عدم الثقة في الجنوبيين. بل إنه حاول، بلا خجل، تشكيل آرائها؛ والآن كان ردُّ فِعلها هو اختيار الزواج من شخص من الجنوب. كان هذا خطأً فادحًا من جانبه. فقد قرأ ذات مرة أنه لا يمكن للمرء أن يُخبِر أطفاله بما يجب أن يفكروا فيه؛ لأنه لو حاول القيام بذلك، فسوف يخسرهم لا محالة. وسيفعلون العكس — العكس تمامًا — مما يريدهم أن يفعلوا. لذا ينبغي للمرء أن يكون حذِرًا. لكنه لم يُولِ هذه النصيحة اهتمامًا، وكانت هذه هي النتيجة.

رفع نظره نحو ابنته. وقال في نفسه: «أنتِ عزيزة جدًّا عليَّ؛ فأنتِ عالَمي. أنتِ ومتاجري؛ هذا عالمنا الصغير.»

نظرت إليه مرةً أخرى. وقالت في نفسها: «أنا لم أختره فقط لأنه من الجنوب. أنت تظن أنني فعلت ذلك، ولكن الأمر ليس كذلك. أنا أحب هذا الرجل. وليس لمسقط رأسه علاقة بالموضوع. لا علاقة له على الإطلاق.»

لم ينبِسا ببنت شَفة. بعد بضع دقائق، أطلقت تنهيدةً ونهضت على قدميها. وعندما غادرت الغرفة، ألقت نظرةً سريعة على والدها وهزَّت رأسها، كأنها تُصدِر حُكمًا عليه. للحظة، توقَّف قلبه من الخوف من فكرة فقدانها، ولكنه قال لنفسه بعد ذلك: «سأقاوم؛ لأنه إذا لم تقاتل من أجلِ ما لديك، من أجلِ ما عملت من أجله، فسيأتي شخص من الجنوب ويأخذه منك.» أراحته الفكرة، ونظر إليها بتحدٍّ وهي تغادر الغرفة. «حسنًا! تزوجي منه، ولترَي كيف ستكون الحياة.»

بذل الأب والابنة جهدًا في الزفاف. استأجر أليسيو فندقًا في الجبال، ودفع ثمن وجبة فخمة للمدعوِّين. ورسم على شفتيه خلال الحفلة ابتسامةً ثابتة، وأبقى هذه الابتسامة على شفتيه طوال حفلة الاستقبال. كان يجلس بين عمَّتين لسالفاتوري، كلتاهما تتوافق مع

رؤيته للنساء الجنوبيات في منتصف العمر. كانتا أرملتين تزوَّجتا من رجلين لا شك أنهما كانا يرتديان بذلات داكنة غير ملائمة وقبَّعات سوداء قديمة الطراز من الصوف. فكَّر أنه كان هناك الكثير من هؤلاء الأرامل في الجنوب؛ لأن الرجال يموتون شبابًا. لماذا يموتون؟ كان ذلك بسبب العنف والقيادة السيئة والعجلة.

في نهاية حفل الاستقبال، عندما كان من المفترَض أن يغادر الزوجان، وقف محرَجًا عند باب الفندق بينما كانت العمَّتان تثرثران وكانت الصديقات تودعن فابريزيا، هؤلاء الفتيات اللاتي كان يعرفهن صديقات الطفولة لابنته، الآن هن بالغات، متزوجات أو مُقدَّر لهن الزواج. نظر إلى هؤلاء الشابات بعينٍ حنونة وتذكَّرهن فتياتٍ منذ سنوات طويلة، عندما كن يأتين إلى البيت لرؤية فابريزيا. كانت فترة الطفولة قصيرة جدًّا، عابرة؛ فأطفالنا يبقون معنا مدةً قصيرة جدًّا. شعر بالدموع في عينيه وقاومها. وعادت ابتسامته الثابتة.

ثم، قبل أن يغادرا، تقدَّم صهر أليسيو الجديد، سالفاتوري، إليه ووقف أمامه، مادًّا يده. صافح أليسيو الرجل الأصغر سنًّا، لكنه تجنَّب النظر إليه. فقال سالفاتوري له بصوت منخفض: «أعرف أنك لا توافق على زواجي من ابنتك. أستطيع أن أرى ذلك. ولكنني أعدُك أنني سأعتني بابنتك. أعطيك كلمتي كـ...» وتوقَّف عن الحديث، ومع أن أليسيو انتظره أن يكمل الجملة، لم يفعل ذلك.

نظر إلى الشاب. وقال: «شكرًا لك. يمكنك أن تعرف كيف يشعر الأب في مثل هذه المواقف، أليس كذلك؟»

قال سالفاتوري: «بلى، ولهذا السبب أطلب منك أن تثِق بي.»

أغلق أليسيو عينيه. وقال: «سأحاول.»

ضغط سالفاتوري على يده، ثم أفلتها. كان هناك ضحكٌ من مجموعة من أصدقاء فابريزيا؛ مزحة أخيرة قبل أن يمرَّ الزوجان من الباب، تحت وميض الكاميرات، ودخلا السيارة التي جُلِبت إلى مقدمة الفندق، والتي كان إخوة سالفاتوري يرشُّونها بقصاصات الورق الملونة التي تُنثر في الاحتفالات.

لم يناقشوا رسميًّا مشاركةَ سالفاتوري في العمل، ولكن فابريزيا أشركته على أي حال، ولم يتحدَّ أليسيو قرارها. بعد فترة، كان أليسيو سيوافق، لو سألته ابنته، عما إذا كان صهره الجديد بائعًا متميزًا. فقد ارتفعت مبيعات المتجر الذي كان يشرف عليه ارتفاعًا ملحوظًا، وطلب أليسيو نفسه من سالفاتوري أن يأتي ويطبِّق مهاراته في المتاجر الأخرى، التي شهدت تحسُّنًا أيضًا.

دخل الدفء الذي نشأ في علاقتهما العملية حينها إلى حياتهما الشخصية. ذهب أليسيو لتناول العشاء مع فابريزيا وسالفاتوري واشترى لهما هدايا ثمينة للمنزل. ورد سالفاتوري هذه اللفتات الطيبة، ودعا حماه للانضمام إليهما في مطعم يحبه؛ حيث قدَّمه لمالك المطعم — جنوبي من نابولي — بفخر. واشترى لأليسيو حقيبةً جديدة، مصنوعة من الجلد الناعم من فلورنسا، ونقش عليها الأحرف الأولى من اسمه بلون ذهبي أنيق.

كانت فابريزيا سعيدة بازدهار الصداقة بينهما، وعلى مدى الأشهر التي تلت الزفاف، عادت هي ووالدها إلى سابق عهدهما من القرب. بل إن أليسيو سمح لنفسه بالتعليق على مسألة الأحفاد، وكيف أنه شعر بأنه «جاهز تقريبًا» لأن يكون له حفيد. عندما قال هذا، فكَّر حتى في أنه ربما سيطلق عليه في نهاية الأمر «باسكوالي»، لكنه لم يقل هذا، بالطبع؛ وابتسم فقط للفكرة.

ثم لاحظ في صباح أحد الأيام أن فابريزيا تبدو منزعجة من شيءٍ ما. كانت سيئة المزاج وانفعلت على زبون، وهو شيء كان عادةً ما يوبخها عليه. ولكنه تراجع وقتها. كان هناك خطبٌ ما.

بدا أن هذا المزاج السيئ قد مضى وانتهى الأمر، ولكن بعد أيام قليلة وجدها جالسة في مكتبها، ورأسها بين يديها.

قال واضعًا يده على كتفها: «هناك خطبٌ ما. أستطيع أن أرى ذلك. هناك خطبٌ ما.»

لم تنظر إليه. كانت صامتة.

قال: «يمكنك أن تثِقي في أبيك وتُسِرِّي إليه بالأمر، أليس كذلك؟» ثم خطرت له فكرة أصابته بالرعب فجأة، وهي أنها تواجه صعوبة في الحَمل. ربما لن يكون هناك حفيد رغم كل شيء؟

أراد أن يقول لها شيئًا مطمئنًا ولكنه لم يجد الكلمات، ومن ثَم ظل صامتًا، كما فعلت هي. لكنه شعر، من خلال يده على كتفها، أنها تبكي، بهدوء وخصوصية.

بدا سالفاتوري كما هو. فكَّر أليسيو أنه ربما يكون من الأسهل للرجل أن يتقبَّل هذا. أو ربما يكون هو أشجع فحسب؛ وزاد إعجابه بصهره. أصبح الآن يشعر بالحرج من ذكرى معارضته السابقة لسالفاتوري، وتعجَّب من قدرة الشاب على السمو فوقها، وأن يغفر له عداءه الذي كاد ألا يكون مخفيًّا.

ثم في إحدى الأمسيات، جاءت فابريزيا إلى منزل أليسيو. ودخلت بمفتاحها ووجدت والدها في غرفة المعيشة، قدماه على مقعد القدمين الجلدي على شكل خنزير الذي أحضرته زوجته له وكانت واحدة من أفضل ذكرياته معها.

نظرت فابريزيا إليه، لكن عقلها بدا في مكان آخر.

بدأت حديثها قائلة: «سالفاتوري ...»

«ماذا عنه؟»

فقالت: «إنه يقابل نساء أُخرَيات»، ثم بدأت في النحيب.

وقف واحتضنها بين ذراعيه.

وقال: «بالتأكيد لا. بالتأكيد أنت تتخيلين هذا، أليس كذلك؟»

فهزَّت رأسها وقالت: «إنه يفعل. إنه يفعل. فالزوجة تعرف هذه الأمور.»

ربَّت على شعرها بلطف. وقال: «ولكن هل لديك أي دليل؟ هل لديك؟»

كان من الواضح أنها لا تملك الدليل، فقال لها، بنبرة مطمئنة، إنها يجب ألا تفترض أنه لمجرد أن بعض الرجال الجنوبيين يقيمون علاقات غرامية مع نساء أخريات فسيفعل سالفاتوري الشيء نفسه. ثم قال: «إنه شاب رائع. أستطيع أن أرى ذلك. أستطيع أن أحكم على شخصية الرجال. أعرف أنه زوج مخلص لك.»

حدَّقت فيه. ثم قالت: «ولكن أنت ...»

قال لها: «يجب ألا تحكُمي على الرجال على أساس مسقط رأسهم. انسَي هذا. الزوجة المتشككة يمكن أن تدفع الرجل إلى أحضان امرأة أخرى. لقد رأيت ذلك يحدث.»

على مدى الأسابيع القليلة التالية، لم يتحدثا في الموضوع على الإطلاق. بدأ أليسيو برفق في إثارة الموضوع مع ابنته ذات مرة، لكنَّ نظرتها أوضحت أنها لا ترغب في مناقشته. ثم، في صباح يوم سبت، عندما كانا يعملان في أحد المحلات، وقف سالفاتوري عند الباب الأمامي في سيارة جديدة غالية. كانت مفاجأة لكليهما، وخرجا لتفقُّدها. فابتسم سالفاتوري وأشار بفخر إلى السيارة الفارهة.

فكَّر أليسيو، فيما بعد، في تكلفة مثل هذه السيارة. ربما كانت أموال العائلة؛ كان قد سمِع أن له عمًّا ثريًّا في مكانٍ ما هناك. لكن كان لدى فابريزيا رأي مختلف.

قالت لوالدها: «ألا تستطيع أن ترى؟ إنه يسرق الأموال من العمل. إنه يسرق الأموال منك!»

كان مصدومًا من الفكرة وانقلب عليها، مُتَّهمًا إياها بأنها غير عادلة تجاه زوجها، خائنة له. وقال ثائرًا: «لا تظني أن كل شخص من الجنوب غير أمين. لا ترتكبي هذا الخطأ.»

نظرت إليه فاغرةً فاها. وقالت: «أنا مَن يجب ألا يرتكب هذا الخطأ؟ أنا؟»

لكن أليسيو كان قد ابتعد، وانصرف عن ابنته ملوحًا بيده. بقيت فابريزيا ثابتة في مكانها، ثم هزَّت كتفيها. وتمتمت بشيءٍ ما، لكنه لم يسمع ما قالت، ولم يكن مُهتمًّا.

بعد يومين، غادر سالفاتوري بالسيارة الفارهة، وكانت امرأة شابة بجانبه في المقعد الأمامي. كان مُتجهًا إلى الجنوب. رآه زوج إحدى صديقات فابريزيا، وهو ضابط شرطة، وهو يغادر المدينة، وأخبرهم عن ذلك. فراجعت فابريزيا فورًا الحسابَ البنكي الرئيسي للأعمال؛ حسابًا كان سالفاتوري يتمتع بالحق في الوصول إليه. كان قد سُحِب كلُّ ما فيه من أموال.

ذهبت إلى مكتب والدها.

فقال لها مُتنهِّدًا: «عزيزتي. أنا آسف جدًّا! حاولتُ تحذيرك، أليس كذلك؟ حاولت حقًّا.»

أقحوان ناماكوالاند

الفصل الأول

كان يُطلَق عليه «الكابتن»، على الرغم من أنه لم يكن يحب اللقب، وكان قد طلب من الناس عدم استخدام هذه الرُّتبة التي حصل عليها لفترة وجيزة بسبب خدمته في هونج كونج. كان ذلك في الصين، وكان في وقتٍ سابق. أما الآن فهو في أفريقيا، وفي عام ١٩٥٦، وكان مجرد ضابط مقاطعة في باسوتولاند؛ لا شيء مميز. مجرد السيد أندروز. لكنَّ شخصًا ما رأى الرسالة الموجَّهة إليه بصفته كابتن، وانتشر الخبر أن هذا هو ما كان عليه. في المجتمع الاستعماري، وخاصة ذلك المجتمع المختبئ في مملكةٍ جبلية، كان أي شيء يشير إلى رُتبة أو لقب مُرحَّبًا به. كانت هذه الأماكن مليئةً بالضباط الذين خدموا أثناء الحرب وأمثالهم، الذين يتمسَّكون بما تبقى لهم من سلطة وأهمية. كان الكابتن صغيرَ السن جدًّا لهذه الرتبة؛ فقد كان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين تقريبًا، وكانت زوجته أصغر منه. وضحكت عندما سمعت أنه يخاطَب برتبة الكابتن.

قالت: «يجعلُك تبدو وكأنك أحد هؤلاء البحَّارة العجائز. إنه يجعلك تبدو سخيفًا.»

قال الكابتن: «أنا لم أطلب من أحد أن يناديني بهذا. إنه مثل اللقب، كما تعرفين. لا يمكنك منع الناس من أن ينادوكِ بلقبٍ ما. لا يمكنك ذلك فحسب.»

الفصل الثاني

لم تكن زوجة الكابتن تحب هذا البلد. حاولت إنشاء حديقة في أرض منزلهم في ماسيرو، لكنها لم تنجح في هذا. كان النمل الأبيض يأكل أشجار الفاكهة التي تزرعها؛ ولم يكن هناك مطرٌ كافٍ؛ وكانت الشمس حارقة.

كتبت لصديقة: «لا أعرف إن كنتُ سأتحمَّل هذا أم لا، هذا المكان بعيد جدًّا عن كل شيء. جنوب أفريقيا عبر الحدود، لكنك تحتاجين إلى السفر أميالًا وأميالًا قبل أن تصادفي أي شخص يتحدث الإنجليزية. جميعهم منغلقون. جميعهم ضيقو الأُفق.»

ردَّت صديقتها: «عزيزتي، يبدو وضعك فظيعًا. ما يجب أن تسألي نفسك عنه هو هذا: هل أنت مستعدة بإهدار حياتك من أجل هيو؟ أعرف أنه وسيم للغاية و... حسنًا، أستطيع أن أفهم هذا الجانب من الأشياء، ولكن هل أنت متأكدة؟ هل أنت حقًّا متأكدة؟»

بالطبع، بمجرد أن سألت نفسها ما إذا كانت متأكدة، أدركت أنها ليست كذلك. كانت تشعر بالملل من حياتهما. كانت تشعر بالملل من هذه الحياة؛ حيث كانت تعرف كل وجه من المحتمل أن تلتقي به، وحيث لم يكن هناك أحدٌ لديه شيء جديد ليقوله.

نظرت إلى الكابتن وفكَّرت: «لا أريد أن أجرحه. إنه رجل طيب. ولكني لا أستطيع تحمُّل هذا بعد الآن.»

حدَّق الكابتن في زوجته — تلك الزوجة التي كان يخشى أنه لا يكاد يعرفها على الإطلاق — وفهِم ما كانت تفكر فيه، وأدرك آنذاك أنه فقد زوجته.

الفصل الثالث

بعد رحيل زوجته، شعر العديد من الناس بالشفقة على الكابتن. كانت هناك أرملة تاجر الماشية الاسكتلندي، وهي امرأة عاشت في هذا البلد منذ ثلاثين عامًا، وكانت تتحدث السيسوتو بطَلاقة. وكانت هناك زوجة القاضي، امرأة تسير في سحابة من العطر وتزرع أحواضًا كبيرة من أقحوان ناماكوالاند في حديقتها. هاتان المرأتان، وخاصة أرملة تاجر الماشية، كانتا تدعوان الكابتن لتناول العشاء مرة أو مرتين في الأسبوع.

قالت زوجة القاضي: «يا له من رجل مسكين. تلك الشابة الصغيرة لم تكن لتتمكن بالتأكيد من التأقلُم مع الحياة هنا. النساء من أمثالها لا ينبغي أن يتزوجن من رجال مثل الكابتن. كان ينبغي أن تبقى في سافك، أو أينما كان مسقط رأسها.»

قالت أرملة تاجر الماشية: «كانت عيناها زائغتين.»

بدت الدهشة على وجه زوجة القاضي. وقالت: «أوه؟ كيف عرفتِ هذا؟»

فردَّت أرملة تاجر الماشية: «عرفته فحسب. أنا أستطيع دائمًا أن أكتشف مثل هذه الأشياء. ونادرًا جدًّا ما أكون مخطئة في هذه الأمور.»

دعَوَا الكابتن للعب البريدج مرتين في الأسبوع. كان عادةً يشارك أرملةَ تاجر الماشية، وكانت زوجة القاضي تلعب مقابل زوجها، وهو رجل قليل الكلام، دائمًا ما يبدو أنه يحدق في الأُفق، حتى عندما تكون أوراق اللعب في يده. قال الناس إن هذا بسبب أنه كان تعيسًا في وظيفته، وأنه كان يفكر في الرجال الذين كان مضطرًّا إلى الحكم عليهم بالسَّجن.

قالت أرملة تاجر الماشية: «إنه حسَّاس للغاية، لدرجةٍ تجعله لا يستطيع التأقلم مع العمل الذي يقوم به. والإمبراطورية قاسية كما تعرفين. أتذكَّر أن زوجي كان يقول هذا. إنها قاسية.»

الفصل الرابع

تلقَّى الكابتن زيارةً من صبي، كان ابن عم زوجته. كان هذا الصبي في الثامنة عشرة من عمره، وكان يتجول في الأنحاء قبل أن يذهب إلى الجامعة. فكتب إلى الكابتن وسأله عمَّا إذا كان يمكنه البقاء عنده بضعة أسابيع. كان من المقرَّر أن تصل سفينته إلى كيب تاون، وسيأتي من هناك مباشرةً إلى باسوتولاند.

كان الكابتن سعيدًا لاكتشاف أن الصبي كان لاعبَ كريكيت جيدًا. كان فريق الكريكيت الذي يلعب فيه الكابتن بحاجة إلى رامٍ، وكان الصبي يناسب هذا المركز تمامًا. خلال النهار، كان الصبي يذهب إلى مدرسة محلية ويُعلِّم الكريكيت هناك. وقد فعل ذلك بناءً على اقتراح من الكابتن، الذي كان يعتقد أنه من الأفضل للصبي أن يفعل شيئًا بدلًا من الجلوس في المنزل طوال اليوم.

أخذ الكابتن الصبي معه في رحلة إلى جنوب البلاد عندما كان عليه زيارة مديريه المباشرين. ساروا في الجبال على صهوات خيول باسوتو، وعسكروا بالقرب من نهر صغير، ينساب من الجبل. من هذا المعسكر، كان الليل دثارًا مظلمًا تحت سماء مليئة بتجمُّعات النجوم اللامعة. كان الاستلقاء والنظر إلى السماء يصيب المرء بالدُّوار. وقال الكابتن: «المحيط الهندي هنا في هذا الاتجاه.»

قال الصبي: «أعرف هذا.»

الفصل الخامس

بعد أن بقي الصبي ثلاثة أشهر، قال له الكابتن إنه قد حان الوقت للتفكير في الرحيل. تبادل الصبي النظرات مع الكابتن بضع لحظات، ثم أشاح بنظره بعيدًا، في اتجاه الجبال.

وقال: «لا أعتقد ذلك. ليس بعدُ. أنا أساعد فريق الكريكيت على التحسُّن. أودُّ البقاء مدةً أطول. وأعتقد أن هذا لا بأس به بالنسبة لك.»

لم يكن سؤالًا، بل كانت جملة خبرية. فتح الكابتن فمه ليقول شيئًا، لكنه توقَّف عندما رأى الصبي يحدق فيه. فأشاح بنظره في صمت.

بعد بضعة أيام، أقامت زوجة القاضي حفلًا. وصل الصبي متأخرًا؛ ولم يكن أحد متأكدًا إن كان دُعِي إلى الحفل أم لا. كان الويسكي مُتاحًا، وشرب الكثير من الضيوف أكثرَ مما ينبغي. في لحظةٍ ما في هذه الأمسية، رأى الناس الصبي يتحدث إلى أرملة تاجر الماشية. قال الصبي شيئًا ثم انحنى للأمام وهمس في أذنها. فنكصت المرأة بحدة ثم — رغم أن القليل من الناس رأوا هذا — صفعت الصبي على وجهه ومشَت بعيدًا. لم يشهد الكابتن هذا الحادث، ولا زوجة القاضي. رأى القاضي ذلك، وهو ينظر من فوق كأس الويسكي الخاصة به. وتجهَّم، ثم حوَّل نظره بعيدًا، وحدَّق في سقف الشرفة، كما كان يفعل غالبًا عندما يلعبون البريدج بسبب الحرارة.

لم تتحدث أرملة تاجر الماشية إلى الكابتن عما حدث في الحفل. لكنها كانت قلِقة؛ كانت تحب جدًّا رفقة الكابتن، وستُصاب بإحباط شديد إذا حدثت فضيحة واضطُرَّ الكابتن إلى الرحيل. فكَّرت أن هذه ستكون نهاية عالمها. لا مزيد من لعب البريدج. لا مزيد من حفلات العشاء. ستكون هذه نهاية كل شيء.

تحدَّثت زوجة القاضي مباشرة. وقالت: «هناك شيءٌ ما يحدث، ذلك الصبي يبتزُّ الكابتن. إن هذا واضح جدًّا، أليس كذلك؟»

قالت أرملة تاجر الماشية: «نحن بحاجة للتخلص منه.»

التفتت إليها زوجة القاضي، التي كانت تنظر من النافذة إلى أحواض زهور الأقحوان، بحدة. وقالت: «لكنه رفض الرحيل.»

الفصل السادس

في الخميس التالي لعبوا جميعًا البريدج. وصل الكابتن متأخرًا؛ إذ كانوا دائمًا يبدءون في الساعة السابعة والنصف بعد العَشاء، ولكنه لم يصل حتى الثامنة إلا الربع. رأوا أضواء سيارته تنعكس على الجدار عندما انعطف إلى الطريق.

قالت زوجة القاضي: «لا بد أنه الكابتن، عادةً ما يكون دقيقًا في مواعيده.»

بدأت لعبة البريدج. كان من الواضح أن لدى الكابتن وأرملة تاجر الماشية جميعَ الأوراق القوية، ولكن الكابتن كان هادئًا.

سألت زوجة القاضي عن الصبي. هل ما زال يُعلم الكريكيت في المدرسة؟ فقال الكابتن: «لا، لقد غادر.» رفع القاضي نظره من أوراق اللعب الخاصة به. وتمتم: «ربما قد حان الوقت لذلك. منذ متى وهو يقيم معك؟»

ألقت زوجة القاضي نظرةً على أرملة تاجر الماشية، التي كانت تحسب النقاط في يدها. لاحظت زوجة القاضي أن المرأة الأخرى لم تكن متفاجئة أن الكابتن تأخَّر. هل كانت تعرف؟

قالت أرملة تاجر الماشية: «قلبٌ واحد.»

الفصل السابع

على مدى الأيام القليلة التالية، وجدت زوجة القاضي صعوبة في التفكير في أي شيء آخر غير التصريح الذي صرَّح به الكابتن بأن الصبي قد غادر. كان من المتوقع أن يغادر — في النهاية — لكنها لم تتصور أنه سيكون من السهل على الكابتن التخلص منه في هذه المرحلة. كانت قد سألت الكابتن عنه أثناء لعب البريدج، لكنها لم تحصل على إجابات شافية. نعم، لقد غادر، إلى لوساكا. لا، ليس لديه فكرة عما سيفعله هناك. كان يظن أن لديه عمًّا هناك، ولكنه لم يكن مُتأكدًا.

طرحت المسألة على أرملة تاجر الماشية، لكنها بدت غير راغبة في الحديث عنها، وغيَّرت الموضوع عمدًا. ثم، في إحدى أمسيات البريدج، أخرج الكابتن فجأة رسالةً قال إنها جاءت من الصبي. أخرجها من جيبه وقرأ بضعة أسطر. أرسل الصبي تحياته للجميع.

لاحظت زوجة القاضي طابع البريد، ورأت، كما ظنت، أنها أُرسلت من لوساكا. لكنها لم تكن متأكدة.

قالت: «أنا مرتاحة أنه يبدو سعيدًا جدًّا.» فأومأ الكابتن برأسه، ووضع الرسالة مرة أخرى في جيبه.

في اليوم التالي، كانت تسير بالقرب من منزل الكابتن، وقرَّرت أن تزوره فجأة. أعدَّ الشاي، وجلسا يحتسيانه في الشرفة.

قالت زوجة القاضي: «لا بد أن فريق الكريكيت سيفتقده. من الغريب أنه غادر قبل مباراتهم المهمة. كنت أعتقد أنه أمرٌ غريب جدًّا، ألا تعتقد ذلك؟»

رفع الكابتن فنجان الشاي. وقال: «في هذا السن، يفعل المرء هذا النوع من الأشياء. على الأقل، أنا كنت أفعل.»

قالت: «لكن هذا يبدو غريبًا جدًّا. أن يذهب بهذه الطريقة. هل كان كل شيء على ما يرام بينك وبينه؟ أحيانًا كنتُ أشعر أنه ... حسنًا، كان وكأنه هو مَن يُسيِّر الأمور.»

لم يُجب الكابتن.

الفصل الثامن

اتصل القاضي بالكابتن في اليوم التالي وطلب منه أن يأتي إلى المنزل. كان مذهولًا، وذهب الكابتن إليه من فوره.

قال القاضي: «زوجتي غادرت. تركتني.»

قال الكابتن: «لكن ...»

قال القاضي، وهو يلتقط ظرفًا ويُخرج منه ورقة واحدة: «تركت رسالة، انظر، ها هي ذي. تخبرني أنها قد سئمت من العيش هنا، وتحتاج إلى بدء حياة جديدة. وتطلب مني ألا أحاول الاتصال بها.»

قال الكابتن: «تمامًا مثلما فعلت زوجتي. أنا آسف جدًّا. لقد حدث هذا معي أيضًا.»

كان القاضي يحدق في الكابتن. ثم قال: «ومع ذلك، فهذا غريب جدًّا. هذه رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة. وزوجتي لم تكتب قط على الآلة الكاتبة. لا تستطيع.»

نظر الكابتن إلى الأرض، ثم إلى خارج النافذة، مرورًا بالأشجار في حديقة القاضي، وأحواض الأقحوان، إلى الجبال في الأفق. كانت زرقاء، زرقاء لدرجة لا تُصدق، مثل الجُزُر في البحر.

الموسيقى تُحدث فارقًا

الفصل الأول

عاشت «لا» في بلدة صغيرة بالقُرب من ساحل سافك. لم تكن أولدبره، لكنها كانت قريبة بما فيه الكفاية، بلدة كانت تحتوي ذات يوم على سوق، لكنها الآن ليس لديها أي من النشاط الذي يكون في بلدة السوق. كانت تحتوي على كنيسة قديمة، بُنيت في العصور النورماندية، قبل ألف سنة تقريبًا، وعِدة مبانٍ جميلة أخرى، منها منزل صوف قديم يجذب الزوار. وكانت هناك مزارع قريبة، بعضها كان غنيًّا، وبعضها كان يكسب عيشه بصعوبة.

جاءت «لا» إلى هناك في عام ١٩٣٨، وبدأت تشكيل أوركسترا. كانت في ذلك الوقت في منتصف الثلاثينيات، امرأة طويلة، جذابة، تتحدث بطريقة حذِرة وموزونة. كانت قد تزوجت في سن مبكرة، في العشرينيات تقريبًا، ثم تُوفي عنها زوجها عندما كانت في الثانية والثلاثين. ترك لها زوجها ثروة مناسبة جدًّا، لكن لا شيء يمكن أن يعوِّض حزنها. كانت تفكر في أنها تُحبه كثيرًا، كثيرًا. قالت في نفسها: «لا أستطيع أن أحب رجلًا آخر؛ لن يكون هناك رجل مثله. لا أحد.»

اشترت منزلًا خارج البلدة، على بُعد نصف ميل تقريبًا على طول أحد تلك الطرق الهادئة التي تخترق ريف سافك. كان منزلًا قديمًا كبيرًا، بجُدران من الجص والطين، مدعَّمة بأعمدة من خشب البلوط، ومطلية من الخارج بلونٍ وردي هادئ مميز يُرى في أجزاء من ريف سافك. كان لديها حدائق كبيرة، على مساحة خمسة أفدِنة أو أكثر، بها مروج وبركة ماء تطغى عليها النباتات. دمَّرت الأغنام جزءًا من الحديقة قبل أن تشتريها، لكنها أصلحت السياج وأبقتها خارجًا. كانت الأغنام تتطلع إلى الداخل، وعلى وجهها تعبير غاضب.

بدأت «لا» تشكيل أوركسترا بعد أن اقترحت صديقة عليها أن يستضيفوا أوركسترا من لندن لتُرفه عنهم بحفل موسيقي. كانت «لا» تشعر بالغضب تجاه لندن؛ لأن صديقة أخرى قد أدلت بتعليق محتقر عن الأشخاص الذين يعيشون في الريف.

فقالت بكل ازدراء: «لا حاجة لدعوة أي شخص من لندن هنا. نحن قادرون تمامًا على تشكيل أوركسترا خاصة بنا.»

قالت واحدة من صديقاتها: «أنحن حقًّا قادرون على ذلك؟» بدت متشككة.

ردَّت «لا» بسرعة، مقتنعة تمامًا بأن هذا ما يجب القيام به: «بالطبع نحن قادرون!» «هناك الكثير من المواهب هنا. وفرة منها.» وأشارت بيدها بتكلُّف في اتجاه النافذة.

نظرت صديقتها إلى الخارج. كانت المروج التي كانت تغرب عليها الشمس مصبوغة بلون الذهب. وكانت هناك حمامتان تهدلان في مكانٍ ما. لكن لم يبدُ أن هناك أي مواهب موسيقية في هذا المكان. ومع ذلك، لم تتأثر «لا»، وتحدثت إلى محرر الصحيفة المحلية. واستمع إليها بجدية. وفكَّر كم أن هؤلاء الناس يأتون ببعض الاقتراحات الغريبة جدًّا، ولكن هذا كان بالتأكيد واحدًا من أغربها. وكتب في دفتره في السر، دون أن تراه «لا»: أوركسترا «لا».

الفصل الثاني

على الأقل، كان لدى محرِّر الصحيفة من اللطف ليعترفَ بأنه كان مُخطِئًا. اتضح أنه لم تكن في المنطقة مواهبُ موسيقية كثيرة فحسب، بل كانت مواهبَ على مستوًى رفيع. عرض عددٌ من العازفين المتقاعدين من الأوركسترات الكبرى في لندن خدماتهم، وكثيرون آخرون، بعضهم جاء من أماكنَ بعيدة مثل كامبريدج، أرادوا العزف. كانت هذه الفترة، كما بدا، فترةَ ركود في العالم الأوركسترالي، وكانت إمكانية الحجز العرضي في مقابل العشاء في منزل «لا» وتذكرة قطار ذهابًا وإيابًا إلى الحفل كافيةً للعديد من الموسيقيين. بأسلوب المدير البارع، كانت «لا» تعرف كيف تقنع وتشجِّع، ووجد الناس أنفسهم ملتزمين بدرجةٍ أكبر بكثير مما كانوا يتوقَّعون في البداية.

كان معظم العازفين غير محترفين، رغم أنهم كانوا هواة ماهرين. كان هناك اثنان، في الواقع، قضَيا وقتًا في دراسة الموسيقى دراسةً أكاديمية؛ وبعضهم كان يمكن أن يفعل ذلك، لو كانت حياتهم سارت بطريقة مختلفة. ثم كان هناك حَفنة ممن يُعرفون بـ «الإخوة الأضعف». وهؤلاء، مثلهم مثل جماعات الكنيسة الذين يكونون أكثرَ عُرضة للارتداد،

يُشرف عليهم، عن قرب، زملاؤهم الأكثر موهبة. كانت المقاطع الموسيقية الصعبة تُشرح بلطف، وأحيانًا، تُقدَّم المساعدة بصوتٍ خافت: «سأؤديها أنا. فقط اتبعني إذا استطعت.»

ومع ذلك، على العموم، لم يكن هذا ضروريًّا، وكان أداء الأوركسترا، بأي معايير، جيدًا ومتمكنًا. في الذكرى السنوية الأولى للأوركسترا، في مايو ١٩٣٩، أقامت حفلًا خاصًّا. استمتعت «لا» بالمجد — بتواضع، بالطبع — ودعت عددًا كبيرًا من الأصدقاء، وأقامت سلسلة من الحفلات للاحتفال بالحدث.

لم يمانع أحدٌ احتفالها بهذا الانتصار على الإطلاق.

لكن كان عام ١٩٣٩. وسأل الناس: «ماذا عن الأوركسترا يا «لا»؟ في ظل الظروف الحالية ...؟»

فقالت: «سنستمر. أليس هذا ما نوينا فعله؟»

لذا استمرت الأوركسترا خلال الحرب، ورحَّبت بمواهب العديد من الموسيقيين من القوات المسلحة التي كانت متمركزة في المنطقة. أثرى جندي أمريكي في سلاح الطيران قسم الآلات الإيقاعية فترةً قصيرة ومجيدة، وأضاف عازفُ كمان كَنَدي ماهر تميزًا حقيقيًّا إلى قسم الآلات الوترية مدة ستة أشهر تقريبًا.

أدَّت الأوركسترا حفلاتٍ موسيقية للقوات المسلحة. وقالت «لا» لصديقة لها: «ليس إسهامًا كبيرًا، لكن الموسيقى تُحدث فرقًا بسيطًا، على ما أعتقد.»

جاء الرد: «بالطبع تفعل. كل شيء يُحدث فارقًا.»

تأمَّلت هذه الكلمات. «كل شيء يحدِث فارقًا.» كانت قد رأت رجلًا يذرف الدموع من التأثُّر في إحدى الحفلات الموسيقية عندما عزفوا مقطوعةً للمؤلف الموسيقي دفورجاك، وعلِمت أنها، حقًّا، تُحدث فارقًا. الموسيقى تُحدث فارقًا.

كانت هذه الفترة تقريبًا هي الأروع لأوركسترا «لا». كان يُعقد مؤتمر في منزل ريفي. كان كل شيء سِرِّيًّا جدًّا ودُعي أعضاء الأوركسترا للعزف في إحدى الأُمسِيات لتسلية الحاضرين في هذا الاجتماع، وقد نُقِلوا إلى المكان دون أي فكرة عن مكانه. وعندما رأوا من كان في الجمهور، عرفوا السبب.

كان الشخص المهم متعَبًا، ونام قليلًا خلال إحدى المقطوعات الموسيقية. لكن بعد ذلك، عندما جاء لتهنئة المايسترو والقائد، ابتسم وأكَّد لهم أن وجودهم كان مُهمًّا.

وقال: «الموسيقى تُحدث فارقًا.» ثم أخرج سيجارًا من جيبه، ولوَّح للعازفين، وذهب.

الفصل الثالث

«لا» نفسها لم تستطِع العزف على آلة. في سياق تعليمها الفوضوي نوعًا ما، كانت قد تعلَّمت أساسيات الموسيقى، وكان والدها ماهرًا في عزف التشيلو. كان قد شجَّعها على تعلُّم آلة الفلوت. ولكن، لأسباب متنوعة، لم يحدث ذلك قط. وظلَّت فكرة أنها قد تعزف يومًا ما غير مستكشفة. كانت تقول: «الفلوت هو الآلة التي لا أعزف عليها.»

كان إسهامها الرئيس في الأوركسترا — بعيدًا عن عملها سكرتيرةً، وداعمةً مالية، ومنظِّمةَ مكان، وصانعةَ شاي — هو نسخ الأجزاء التي يصعب العثور عليها، باليد. تمكَّنت «لا» بطريقةٍ ما من استعارة النوتات الموسيقية، ولكن بعض أجزاء هذه النوتات غالبًا ما يكون مفقودًا، وكانت تذهب إلى كامبريدج، وتلجأ إلى مكتبة وتنسخ الجزء المفقود بيدها. كانت تقضي ساعات في هذا، حتى تتلطخ أصابعها بالحبر الأسود. ولكن نَسخها للنوتات كان واضحًا، وكان الناس يحبون أن يعزفوا الأجزاء التي تنسخها «لا»، والتي تُوقِّع على كل صفحة منها باسمها في الأسفل: «لا».

كان لديها الوقت للقيام بذلك لأنها ليس لديها وظيفة. بالطبع، خلال سنوات الحرب كان أمامها الكثير للقيام به. فقد كانت تقود سيارةَ إسعافٍ أربعة أيام في الأسبوع، بما يتيح لسائقها المعتاد القيام بواجبات أخرى، وكانت تؤدي نوباتِ عملٍ في مركز رعاية صغير؛ حيث يُعتنى بالجنود المصابين. ولكن الأوركسترا هي التي استهلكت بقيةَ وقتها وطاقتها.

أحيانًا، في الساعات الأولى من الصباح، كانت «لا» تستيقظ قلِقةً بشأن الأوركسترا. ماذا سيحدث إذا لم يتمكَّن المايسترو من قيادة الأوركسترا؟ كان يكبر في السن إلى حدٍّ ما، وكان يشتكي من قلبه. كانت قيادة الأوركسترا أحيانًا عملًا شاقًّا، وكانت تتخيل أنه قد يشكل ضغطًا على القلب. ربما كان عليها أن تطَّلع على النوتات الموسيقية مُسبقًا وتحدِّد إن كانت ستكون مرهِقة جسديًّا إلى حدٍّ ما أم لا؟

ماذا سيحدث إذا وقع الأمر الذي لا يمكن تصوُّره؟ ماذا لو سقطت البلاد في أيدي النازيين؟ ماذا سيحدث للأوركسترا؟ هل سيُبعَد الجميع، أو سيُكتفى بمنعهم من العزف؟ ماذا لو حُظِرت الموسيقى، واعتُبرت نوعًا من التهديد؟ قد تُضطر الأوركسترا إلى العزف سرًّا في منازل الناس، يسابقون الوقت في الأداء بينما يقف أحدهم خارجًا، مستعدًّا لإنذارهم.

هذه الأفكار — السخيفة — جعلت «لا» تُضيء الغرفة. النور يُبعد هذه الأوهام، هذه الأفكار الانهزامية؛ النور يضع لها حدًّا. فالبلد لن تُهزم أبدًا؛ ستصمد بريطانيا. كان من

المستحيل تصوُّر الهزيمة، ليس لأنه لا يمكن تصوُّر ما سيكون عليه الأمر إذا هُزمنا، ولكن لأن الهزيمة كانت نتيجةً غير محتملة.

قالت لنفسها إن كل الناس يعتقدون ذلك. لم تعرف أحدًا يعتقد خلاف ذلك. في الواقع، قال لها أحد أعضاء الأوركسترا، وهو لاجئ بولندي حديث التجنيد: «سنفوز بهذا، كما تعلمين. سنفوز.» كان ينظر إليها كما لو كان يتحداها لتُعارضَ ما قاله. لكنها لم تفعل ذلك، بالطبع، وقال البولندي بعد ذلك: «أتعلمين لماذا سنفوز؟ لأن الموسيقى إلى جانبنا.»

الفصل الرابع

هذا اللاجئ البولندي، الذي يُدعى فليكس، كان يعمل في مزرعة. كان قد أصيب، وكان يعرج نتيجةً لذلك. جعله ذلك غير صالح للجيش، ولكنه كان صالحًا بما فيه الكفاية لقيادة الجرَّار. كان يعيش في كوخ على حافة مزرعة كبيرة للمحاصيل الحقلية. كانت المزرعة ملكًا لرجلٍ مُسِن كان يعيش منعزلًا عن العالم. كان يرى فليكس مرةً واحدة في اليوم، يعطيه أوامره ثم يختفي مرةً أخرى داخل منزله في المزرعة.

مثل «لا»، كان فليكس في الثلاثينيات من عمره، رجلًا هادئ الطباع فقدَ الثقة في نفسه بعد إصابته. لم يتحدث قط عمَّا حدث له، وكانت «لا» ذكية بما يكفي لئلَّا تتطفل عليه. كان هناك الكثير من الناس حولها حدثت لهم أمور فظيعة، وكان من الأفضل الانتظار حتى يختاروا أن يخبروك، إذا اختاروا.

كان قد حضر إحدى الحفلات الموسيقية، وهكذا التقت به ووظَّفته. كانت الحفلة في قاعة مدرسة، وفي الاستراحة كانوا يقدِّمون الشاي من إحدى الغلايات الكبيرة في المدرسة. كانت «لا» تقدِّم الشاي، بالإضافة إلى امرأتين أُخريين كانتا تساعدانها في هذه المهام. لم تلاحظ فليكس في الطابور، ولكن فجأة وجدته أمامها، يمد يده بالبنسَين اللذين كانوا يطلبونهما مقابل الشاي وبسكويت صغير غير لذيذ بعض الشيء.

كانت قد صبَّت له الشاي وناولته إياه. وأخذ منها الفنجان، وحينها لاحظت أن يده ترتجف. وكان الفنجان يهتز في صحنه.

رأى أنها تنظر إلى يده، وتوقَّفت الرجفة. ابتعد، ولكن عندما انتهت «لا» من تقديم الشاي، بحثت عنه فرأته واقفًا بمفرده في نهاية الغرفة.

طوت مئزرها وذهبت إليه. قالت: «لم أرَك في حفلاتنا الموسيقية من قبل.»

قال: «نعم، هذه هي المرة الأولى.»

ابتسم لها أثناء الكلام، وابتسمت له. كان أجنبيًّا بالتأكيد، على الرغم من أن إنجليزيَّته كانت جيدة جدًّا. سألته عن المكان الذي أتى منه. فأخبرها.

فكَّرت: كنت سأقول إنه فرنسي، من شكله، ولكن لا، كان ذلك سيكون خطأ. فالفرنسيون أكثر ثقةً بالنفس من هذا الرجل؛ إنه خجول ومتحفِّظ في تصرفاته.

قالت: «من الواضح أنك تستمتع بالموسيقى.»

مدَّ يده ليضع فنجانه على طاولة في جانب الغرفة. مرَّ شخص بجانبه واصطدم به قليلًا، فاحمرَّ وجهه، كما لو كان محرجًا من كونه وقف في طريقه.

قال: «بالطبع. أستمتع بها فعلًا.»

قالت «لا»: «قد نعزف بعض أعمال شوبان مرةً أخرى، لقد عزفنا مقطوعةً له في الحفل الأخير.»

قال: «سيكون ذلك رائعًا.»

لاحظت أنه يعتمد على قدمه اليمنى تارةً واليسرى تارةً وكأنه قد تعِب من الوقوف. يا له من رجل مسكين.

ثم قال: «أنا أعزف الفلوت، أو على الأحرى كنت أفعل. لم أعزف منذ عام تقريبًا. لا، ربما منذ مدة أطول من ذلك.»

أثار هذا اهتمام «لا». فقالت: «لا بد أن تخبرني باسمك.»

الفصل الخامس

ذهبت «لا» إلى كامبريدج بالقطار في صباح أحد الأيام، وغادرت بعد العاشرة تقريبًا، كان الوقت صيفًا ولكن اليوم، الذي بدأ مُشمسًا دافئًا، أصبح ممطرًا. تراكمت الغيوم الرمادية الضخمة في الغرب، وكانت ترى المطر عن بُعد، فوق حقول سافك وكامبريدجشير، يتساقط زخَّاتٍ زخَّاتٍ، وكأنه أستارٌ تحجُب ما وراءها. وكانت تشاهد من نافذة قطارها، عبر قطرات المطر المتساقطة على الزجاج، طائرةً تُحلق دائريًّا، بكسلٍ. رأتها امرأة تجلس قُبالتها وهي تراقب المشهد من النافذة فقالت: «لا بد أنهم في التدريب. إنهم صبية، كما تعرفين. مجرد صبية. ربما في الثامنة عشرة من عمرهم، أو نحو ذلك.» وهزَّت رأسها فيما يمكن أن يكون استنكارًا، أو ندمًا؛ لم تستطِع «لا» أن تحدِّد.

قالت «لا»: «حفظهم الله.»

واصل القطار رحلته. الآن أصبحت كامبريدج في مرمى البصر، بأبراجها المألوفة؛ وحقولها المقسَّمة بعناية، بحيث تُنتج كل بوصة منها طعامًا؛ وغابة الدراجات في محطة

القطار. كان عليها أن تمشي إلى المتجر، واستغرق الأمر منها أكثرَ من أربعين دقيقة؛ وتوقَّف المطر، ولكنها كانت تشعر أنه ما زال عالقًا في الهواء، وليس بعيدًا.

قال الرجل: «أنتِ مَن اتصلتِ بي عبر التليفون. أنتِ من اتصلتِ، أليس كذلك؟»

فأومأت برأسها مؤكدة: «بلى، أنا مَن اتصلت بك.»

كان يقف خلف منضدة البيع. ونظر إلى ما وراءها عبْر النافذة وقال: «المطر.»

فأجابته: «نعم.»

ثم قال: «حسنًا. الفلوت.»

التفت للوراء وفتح خِزانةً خلفه. ومدَّ يده داخلها وأخرج صندوقًا ضيقًا مغطًّى بالجلد، ثم فتحه وقال: «ها هو ذا. إنه آلة موسيقية جميلة جدًّا. هل تودين تجربته؟»

مدَّ لها يده بالفلوت. وكان المعدن المصنوع منه الفلوت باردَ الملمس. للحظة، رأت صورتها المنعكسة على آلة الفلوت الفضية مقطَّعة. وقالت: «تجربته؟ لا، أخشى أنني لا أستطيع العزف. أود لو أستطيع، لكني لا أفعل.»

قال: «إذن، فهو لشخص آخر؟ ربما لطفل؟»

هزَّت رأسها. وقالت: «إنه لرجل؛ رجل كان يعزف ولكنه لا يملك فلوتًا حاليًّا.»

قال: «إذن، فسيكون سعيدًا جدًّا بهذه الآلة.»

غادرت المتجر، تحمل الفلوت في كيس تسوُّق قديم أعطاها إياه الرجل. لم يستغرق الشراء وقتًا طويلًا — أقل بكثير مما كانت تتخيل — وهذا سيُعطيها الفرصة للقيام بالمزيد من الأشياء التي كانت في قائمتها. لكن أولًا، أرادت الاحتماءَ من زخَّة المطر الخفيفة التي بدأت. كان هناك مقهًى في نهاية الشارع؛ هذا سيفي بالغرض.

احتلت الطاولة الأخيرة الشاغرة في المقهى وطلبت الشاي والكعك. ثم أخرجت الفلوت من صندوقه وفحصته ممسكةً به برفق. سيندهش بالطبع، ولكنه سيُحدث فرقًا كبيرًا معه.

كانت تعرف الكوخ الذي يعيش فيه؛ لأنها كانت تسير في ذلك الطريق كثيرًا. وفكَّرت أن المكان مظلم للغاية، ومنزل المزرعة نفسه يبدو فوضويًّا، حتى من الخارج. ليس مكانًا مُبهِجًا للإقامة فيه، حتى في الصيف. امتلاك الفلوت سيجعل أموره أسهلَ كثيرًا.

الفصل السادس

قرَّرت «لا» ألا تخبر فليكس بأنها ستُحضر له الفلوت. وفي المساء التالي بعد عودتها من كامبريدج، ركبت دراجتها متوجهةً إلى كُوخِه. كان المطر قد توقف، أو انتقل إلى مكان

آخر، وكان الهواء مُشبَّعًا بالدفء. وفي الحقل المجاور لكوخه، كانت الأبقار تقف بالقرب من البوابة، تجترُّ الطعام، وتحدِّق في الطريق بلا مبالاة. كان الذباب يحوم حول عيونها. شاهدتها وهي تسير على المسار الضيق الذي يؤدي إلى بابه الأمامي. ظنَّت أنه ربما يكون في العمل؛ حيث كانت هناك ساعاتٌ من الضوء متبقية، في هذه الحالة يمكنها ترْك الفلوت على عتبة بابه، وربما تترك إلى جانبه ملحوظة مكتوبة. وحتى لو لم تترك ملحوظة، سيعرف أن الفلوت من أجله، على الرغم من أنه قد لا يُخمِّن مَن تركه في هذا المكان هديةً له.

لكن فليكس كان في المنزل، وأجاب من فوره بعد طرقِها البابَ. بدا مُفاجأً لرؤيتها، وظل لحظةً واقفًا هناك، يرمش، وكأنه يحاول تذكُّر مَن هي.

قالت: «هذا لكَ»، وهي تسلِّمه الصندوق المغطَّى بالجلد.

أخذه منها بحذر. ونظر إليها، وهو يقلب الصندوق في يديه. ثم رفع نظره إليها، مُتحيرًا إلى حدٍّ ما.

فقالت: «افتحه. تفضَّل. فقط افتحه.»

عندما رأى الفلوت، انتفض. وقال: «هذا لي؟»

أعطته ابتسامةً تشجيعية. وقالت: «أخبرتني أنك تعزف. وقلت إنك لا تملِك فلُوتًا. حسنًا، الآن لديك واحد.» أخرجَ الفلوت من صندوقه وفحصه بعناية. وقال: «إنه رائع جدًّا. رائع جدًّا.» وتوقَّف لحظة عن الحديث. ثم قال: «لكني لا أستطيع دفْع ثمنه. ليس الآن. ربما لاحقًا.»

قالت: «هراء. هذه هدية. اعتبرها ... اعتبرها هدية شُكر على كلِّ ما تقوم به هنا من عمل. العمل الذي لولاه لكان هذا المكان خرابًا.»

أومأ برأسه مُبديًا أنه فهم. ثم رفع الفلوت إلى شفتيه، ودون أن ينفخ، تحرَّكت أصابعه إلى سلسلة من الأوضاع. كان سريعًا، خفيفًا في لمساته.

نظرت إلى ما وراءه عبر الباب، إلى الغرفة في الخلف. كان الأثاث متناثرًا في أرجائها: طاولة، كرسي واحد، راديو حصل عليه فليكس من مكانٍ ما. كان صاحب المزرعة بخيلًا — أو هكذا قال الجميع — ولم يقدِّم أيَّ وسيلةِ راحةٍ لهذا الرجل الذي يعمل لديه. فتجهَّمت «لا».

قال: «هل يمكنني أن أعزف عليه؟» وتحسَّس الفلوت. «إنه جميل جدًّا.»

قالت: «بالطبع. إنه مِلكك الآن. مِلكك لتعزف عليه.»

استمعت إليه وهو يعزف لحنًا لم تعرفه. كان عزفه رائعًا؛ كان يتقن العزف على آلته. قرَّرت أن تدعوه للانضمام إلى الأوركسترا؛ كان بالتأكيد ماهرًا بما فيه الكفاية. عندما انتهى من العزف سألته إذا كان يود الانضمام.

قال: «الآن بعد أن أعطيتِني هذا، كيف يمكنني أن أرفض؟»

قالت: «لا يمكنك، أو بالأحرى، يمكنك، لكن سيكون ذلك غاية في الفظاظة من جانبك.»

قال: «في هذه الحالة، نعم.»

الفصل السابع

في الأسبوع التالي، حضر فليكس تمرينه الأول على الأوركسترا. وقدَّمته «لا» للمايسترو ولعازف الفلوت الآخر، ثم ذهبت إلى الجزء الخلفي من القاعة حيث كانت تجلس أثناء التمارين. وقالت: «تجاهلوني فحسب»، وكانوا عادةً ما يفعلون. لكنها كانت تشاهد وتستمع، وتعرف نقاط القوة ونقاط الضَّعف لدى كل لاعب. كان لاعب الباسون يعاني ضَعفًا في إحساسه بالتوقيت، وكان يتأخَّر أحيانًا في الدخول، أو يدخل مبكرًا عن الوقت المحدَّد له، أو أحيانًا لا يدخل على الإطلاق. أما عازفو التشيلُّو، فكانوا ممتازين؛ ولم يرتكبوا أي خطأ. كان عازفو قسم الآلات النحاسية يميلون إلى الضوضاء، وكان لا بد أن يُطلَب منهم من وقت لآخر أن يسكتوا بينما يشرح المايسترو شيئًا. وكان واحد أو اثنان من عازفي الكمان مترددَين في عزفهما، وكان المايسترو يميل نحوهم بطريقة مُبالغ فيها، بينما يضع يده على أذنه إشارةً إلى أنه لا يسمع عزفهما.

أثناء الاستراحة، عندما كان العازفون يتجوَّلون في نهاية القاعة، رأت أن فليكس كان يقف بمفرده، وحيدًا خجولًا. كانت تتحدَّث مع أحد عازفي الآلات النحاسية، لكنها استأذنت ومشت نحو فليكس. لكن قبل أن تصل إليه، اقتربت منه واحدة من عازفات الكمان، امرأة شابة لم تكن تعرف عنها الكثير، واحدة من السكان المتنقِّلين في زمن الحرب. فوقفت «لا» دون حركة. رأت هذه الشابة تبتسم، وتشاركه في مزحة، فملأها هذا المشهد بالقلق.

كانت تتظاهر بأنها تنظر في دفتر ملاحظاتها، لكنها كانت تراقبهما. مدَّت الشابة يدها إلى الأمام ووضعتها على ساعده في إيماءة طمأنة، كما يبدو، أو ربما كانت تؤكد على نقطةٍ ما في حديثهما. ولاحظت أنه يبتسم مُستجيبًا للفتاة؛ يبتسم ويومئ برأسه.

أشاحت «لا» بوجهها. وشعرت بالارتباك. فلمَ تشعر بالغيرة من حديثه مع هذه الشابة؟ إنه لا يمثل لها شيئًا؛ ومع ذلك، ذهبت إلى كامبريدج لشراء فلوت له، وهي هدية

باهظة الثمن بكل المعايير، ووجدت نفسها متحمِّسة بشدة لفكرة إعطائه الآلةَ الموسيقية. كان الأمر كما لو أن الهدية ربطتهما معًا بطريقةٍ ما، وهذا لا يجب أن يحدث؛ لأنها لا ترغب في الارتباط بأي شخص، ليس الآن.

في نهاية التمرين، شغَلت «لا» نفسها بالمهام الإدارية: التشاور مع المايسترو حول جدول أعماله، وتدوين المواعيد، وتوزيع النوتات الموسيقية. ثم فجأة أدركت أن فليكس كان هناك، يقف بالقرب منها، حاملًا صندوقَ الفلوت تحت ذراعه. لاحظت أن ملابسه، كانت متواضعة. كان قد غيَّر ملابس العمل الخاصة به للتمرين، لكن حاشية قميصه كانت غير مضبوطة، وظنَّت أنه قد قلبها لإخفاء قِدَمها.

نظر إليها، وثبَّت عينيه عليها بمنتهى الجدية وكأنه يُؤنِّبها.

قال: «أنتِ غاضبة مني لسببٍ ما. وتتظاهرين بأنك لا تلاحظينني.»

نظرت إليه نظرةً تُعبِّر عن دهشتها. وقالت: «بالطبع أنا لست غاضبة منك.»

واصل الحديث. قال: «هذا لأنني كنت أتحدَّث مع تلك المرأة، أليس كذلك؟»

أرادت «لا» أن تشيح بوجهها. بأي حق يتخيَّل أنني مُهتمَّة به؟ سألت نفسها. ثم قال لها: «كنت أتحدث عن الموسيقى التي كنا نعزفها. هذا كل شيء.»

فحدقت فيه.

الفصل الثامن

جاء إلى منزلها. كان ذلك في المساء، بعد بضعة أيام من التمرين الذي تبادلا فيه هذه المحادثة المربِكة. كانت تجلس في غرفة الاستقبال الخاصة بها، في مؤخرة المنزل. ولا تزال خيوط الشمس الأخيرة تتخلل الأشجار، وكان للضوء ذلك اللون الخافت الهادئ الذي يراه المرء، أو يكاد يشعر به، في أمسية صيفية. كانت تشعر بالنعاس؛ نعم كانت ناعسة. وكان صوت الراديو يصدح بأخبار تلك الأماكن البعيدة، التي أصبحت مألوفة الآن، حتى إن بعض الناس كانوا يضعون علامات عليها على خرائط صغيرة ملصَقة على جدرانهم.

فجأةً، أدركت أن هناك شخصًا في الحديقة، يقترب من المنزل. سمِعته أولًا، سمِعت وقْع خطواته على الحصى، صوت طقطقة، فانتبهت حواسُّها. لم يأتِ أحدٌ من هذا الطريق، على الأقل ليس في المساء. في بعض الأحيان كان يأتي صبي الجزَّار ويترك طردَه عند باب المطبخ إذا لم يرُدَّ أحدٌ على الجرس، ولكن خلاف ذلك لم يأتِ أحد من هذا الطريق.

في حالة ارتباكها البسيطة، فكَّرت: هذا له علاقة بما يحدث، هذا له علاقة بالحرب. ولكن سرعان ما أدركت أن هذا سخيف. وقفت على قدميها عندما سمِعت وقْع الخطوات

مرةً أخرى، وقد أصبحت أقرب الآن. عندما رأته من خلال النوافذ الفرنسية، استغرق الأمر منها لحظة لتعرف مَن هو؛ إذ لم تكن تتوقَّع حضوره على الإطلاق. كانت الفكرة الأولى التي راودتها هي: كيف عرف أنني أعيش هنا؟ فهي لم تخبره.

التقت عينا فليكس بعينيها من خلال الزجاج، ثم ابتسم وأشار إليها. كان يرتدي قبعة، قبعة رمادية، فخلعها. وكان هناك شيء في يده الأخرى.

توجَّهت نحو الباب وفتحته له. هبَّ هواء المساء عليها، دافئًا على بشرتها.

«آمُل أنني لم أُخِفْكِ.» كان صوته هادئًا.

«لا. على الإطلاق. لكنك فاجأتني. الباب الأمامي ...» قطعت كلامها. رأت أن ما يحمله هو الفلوت في صندوقه المغطَّى بالجلد.

«لقد قرعتُ الباب الأمامي. لكن بعد ذلك سمِعتُ الراديو من الداخل وعرفتُ أنكِ لا بد أن تكوني هنا.»

أشارت إليه بالدخول إلى الغرفة، فدخل، وراح يمسح حذاءه على السجادة الصغيرة بعناية، آخذًا الوقت الكافي. نظر إليها نظرةً لم تعرف كيف تفسِّرها، رغم أنها بدت لها كاعتذار. ثم سلَّمها الفلوت.

قال: «لقد أحضرتُ لك هذا ثانية. لا يمكنني قبولُه. لا يمكنني أخذُه منكِ، ولا أستطيع دفع ثَمنه. أرجوكِ أن تتفهمي.»

كان الفلوت في يديها وقتها، وحدقت فيه، غير متأكدة مما يجب أن تفعله. بالطبع كان يتمتع بالكبرياء؛ هذا هو الأمر؛ لقد سمعت الناس يقولون إن البولنديين لديهم إحساس بالكبرياء. ويمكنها أن تتفهَّم. فعندما يُحتل بلدك، ويَستولي عليها بلد آخر، يجب أن تتمسَّك بكبريائك، أو على الأقل ما يتبقى منها.

فكَّرت بسرعة. أرادت أن يحصل على الفلوت. وأرادت أن يعزف في الأوركسترا. وفجأةً بدا لها ذلك مُهمًّا للغاية.

خطرت ببالها فكرة. يمكنه العمل في حديقتها. وعندئذٍ سيستطيع الحصول على الفلوت من عَرق جبينه؛ وستكون هذه مقايضة عادلة.

الفصل التاسع

اعتادت وجودَه. كان يأتي ثلاثة أيام في الأسبوع، في المساء، ويبدأ العمل في الحديقة. اكتشفت أنه على دراية بما يفعله؛ كان يعرف الأسماء اللاتينية للنباتات، وهو ما يفوق

معرفتها بكثير، وبدا أنه يفهم احتياجات كل نبات. كان يحصد نبات اللافَندر من أجلها ويربطه في حِزَم، ويعلِّقه مقلوبًا رأسًا على عقِب، حتى يجف. وفي نهاية المسار، حيث كانت تنمو الحشائش، أصبح الآن مرتبًا للغاية. وزرع نباتات جديدة ونقل أخرى إلى أماكنَ أفضل. قال: «يجب أن تكوني حذِرة بشأنِ ما تزرعينه في الظل.»

بعد ذلك، عندما ينتهي من عمله، كانت تراقبه وهو يسير على الطريق بخطواته المتعثرة، وتشعر بالوَحدة. لكنها كانت تقول لنفسها: «لا يمكنني أبدًا السماح لنفسي بالوقوع في حُبه. لقد انتهيت من مسألة الحُب هذه.»

كانت الأوركسترا تمر بفترة من النشاط والحماس المميزين. كانوا يعملون على برنامج لحفل موسيقي سيقدمونه في ديسمبر، وهو برنامج طموح ووجده بعض الأعضاء صعبًا. حضرت «لا» كل التمارين وشاهدت فليكس يعزف على الفلوت الخاص به. وكان يبتسم لها، وكأنهما متآمِران.

قال أحد عازفي التشيلُّو: «علاقتكِ تزداد قربًا بعازفكِ البولندي. إنه اكتشاف جيد، من جميع النواحي.»

لم تقل «لا» شيئًا، لكنها ابتسمت. لطالما أحب أعضاء الأوركسترا الثرثرة؛ لطالما أحب الناس عمومًا الثرثرة.

قال لها قائد الأوركسترا، على انفراد، في نهاية إحدى الجلسات: «كانت فكرة جيدة يا «لا» إحضار ذلك الرجل. لديه أسلوب عزف جميل، أليس كذلك؟ الفلوت أصبح مُبهِجًا الآن.»

شعرت بالفخر باكتشافها. وعندما جاء ديسمبر، بعد الحفل الذي أثبت شعبيته بحيث تم ترتيب عرضين، دعت فليكس إلى المنزل لتناول الطعام معها. فقبِل فليكس دعوتها، وجلسا في غرفة الطعام، وكان فليكس يشعر بعدم الارتياح إلى حدٍّ ما في بذلة لم ترَها من قبل، بذلة رمادية ذات طيَّات صدر عريضة.

قالت: «عندما ينتهي كل هذا، ماذا ستفعل يا فليكس؟ عندما تستعيدون بولندا؟»

قال: «تقصدين «إن» استعدنا بولندا. هناك الكثير من الناس الذين قد لا يريدون ذلك.»

ظلَّت صامتة. ثم قالت: «لكن الأمور تسير في صالحنا. هذه حقيقة. انظر إلى صقلِّية. انظر إلى إيطاليا.»

بدا عليه التفكير. ثم قال: «يمكننا عزف الموسيقى الإيطالية ثانية، دون أن نشعر بعدم الارتياح لذلك.»

ضحكت. وقالت: «أنا لم أشعر يومًا بعدم الارتياح لذلك. موسوليني وعصابته لا ينتمون إلى هناك. إنهم لا يمثلون إيطاليا.»

ابتسم. وقال: «أنتِ بريطانية. تؤمنين بأن الجميع طيبون. أما أنا فبولندي. نحن نرى الأشياء بطريقة مختلفة.»

أمالت رأسها. لم تكن متأكدة إن كان يمدحها بهذه الجملة أم العكس. لكنه لم يُجب عن سؤالها، لذلك أعادت طرحه مرة أخرى.

هزَّ كتفيه. وقال: «سأرى كيف تسير الأمور. أنا مُرتاح هنا، في هذا البلد. أحب عدم الخوف من الناس الذين يرتدون الزي الرسمي. أحب البيرة الدافئة ذات المذاق ...» وأظهر تعبيرًا على وجهه. ثم استأنف: «أحب الأوركسترا الصغيرة الخاصة بك.»

أصغت إليه «لا».

الفصل العاشر

كانوا يعلمون قبل حدوث الأمر. كان الأمر واضحًا بما يكفي، على الرغم من وجود انتكاسات، عندما واجه الحلفاء مقاومةً وتباطأت الأمور. لكن كان من الواضح الآن كيف ستنتهي الأمور، وشعر الناس برضًا هادئ؛ نعم الرضا فحسب. يكن هناك شعور بالنصر؛ فالناس كانوا مُتعَبين للغاية، ومستنزَفين للغاية. لكن سرعان ما سينتهي كل شيء، وينتهي هذا الكابوس.

كان فليكس قد دفع ثمن الفلوت منذ فترة طويلة من خلال عمله في الحديقة، لكنه أصرَّ على الاستمرار في المجيء، خاصة الآن وقد جاء الربيع، أو أوشك على الأقل، وكانت الحديقة بحاجة إلى الكثير من العمل. كانت «لا» تراقبه من غرفة جلوسها، وتقدِّم له أكوابًا من الشاي.

قالت له في يوم من الأيام: «كنت أفكر في شيء. هل تعتقد أنه من سوء الطالع أن تخطط لشيء مُقدَّمًا؟ قبل أن يحدث؟»

بدا أنه يقرأ أفكارها. ثم قال: «مثل النصر؟»

«نعم. بالتحديد، حفلة موسيقية للنصر. إنه قد يحدث في أي وقت، كما تعلم، ويجب أن تكون الأوركسترا جاهزة.»

نفض بعض التراب عن أصابعه ومسح يديه في بنطاله. وقال: «فكرة جيدة جدًّا. يجب أن نخطط لها. لكن لدي طلب واحد. هل يمكننا أن نعزف شيئًا بولنديًّا؟ أرجوكِ. أعرف أنه نصركم، لكننا أيضًا، قد عانينا ...»

قبِلت اقتراحه ببساطة. وبدءوا في التمرين، على الرغم من أن أحدًا لم يقُل علامَ يتمرنون. رغم ذلك، كانوا يعرفون جميعًا أن هذه الحفلة ستكون مميزة. عندما جاء اليوم الموعود، فجأة، وبطريقة درامية، صنعوا مُلصَقات وعلَّقوها في غضون ساعات. كانت الأوركسترا جاهزة.

كان البرنامج طويلًا، لأن «لا» كانت تعرف أن أحدًا لن يرغب في أن ينتهي. وكانت القاعة مكتظَّة؛ وكان الناس يقفون في الخلف، أذرعهم على أكتاف بعضهم. كانوا يحتضن أحدهم الآخر، وفي النهاية وضع أعضاء الأوركسترا الآلات وصافح أحدهم الآخر. وابتسم بعضهم لبعض.

سار فليكس مع «لا» إلى منزلها. توقفت خارج الباب. فابتسم لها ومدَّ يده. وقال: «لقد كنتِ غاية في اللطف معي.»

صافح أحدهما الآخر.

قال: «ماذا سيحدث للأوركسترا؟ الآن بعد أن ... بعد أن انتهى كل شيء؟»

لم يكونوا قد تحدثوا عن هذا من قبل. كانت تعرف، على أي حال، أن الأمر سيكون صعبًا. سيغادر الناس، وسيمضون قُدمًا في حياتهم. ربما لن تستمر الأوركسترا. كان المايسترو كبيرًا في السن حينها ولن يرغب في الاستمرار، الآن، بعد أن أصبحت البلاد في سلام، أو تقريبًا في سلام.

قالت: «أخشى أنها ستَنفَضُّ على الأرجح. لقد انقضى وقتها. أمرٌ محزن، ولكن هذا هو الواقع.»

قال: «يمكن أن تستمرَّ. الحياة ستستمر.»

ابتسمت له. وقالت: «نعم، الحياة ستستمر. لكن عليَّ أن أكون واقعية بشأن الأوركسترا. لقد قضينا وقتًا ممتعًا. حقًّا فعلنا.»

أطلق تنهيدة. وقال: «حسنًا.» ثم التفت ومشى في الطريق. لم يرَ التعبير الذي اكتسى به وجهها.

الفصل الحادي عشر

كان السَّفر صعبًا جدًّا، لكنها الآن تستطيع أن تُسافر. قرَّرت أن تذهب إلى كورنوول، حيث تعيش ابنة عمها. لم ترَ إحداهما الأخرى منذ سنين، وفي تلك الفترة تزوجت ابنة عمِّها. أرادت أن تلتقي بالرجل الذي رأته في الصور فقط.

أمضت ثلاثة أسابيع في كورنوول، تقيم في البيت الذي تعيش فيه ابنة عمها وزوجها على أطراف القرية. كانت ابنة عمها تزرع الخضراوات وتُربي الدجاج؛ تناولت «لا» أومليت عيش الغُراب الكبير على الإفطار، تعويضًا عن السنوات التي كان من الصعب فيها شراء البيض. في كل صباح، عندما تستيقظ، كان زوج ابنة عمها يحضِر صينية الشاي ويضعها بجانب سريرها.

قالت: «أنت تُدلِّلني.»

أجاب: «تستحقين ذلك. لقد كنتِ تعملين بجد.»

هل فعلتُ؟ سألت نفسها. بصعوبة تستطيع أن تقول هذا. لم تكن تعمل بجدٍّ مقارنة بالآخرين، مقارنة بالناس في الأساطيل، وفي المناجم، وفي المصانع. كان زوج ابنة عمها نفسه طبيبًا. كان يعمل في مستشفًى قريب، وقد فعل ذلك طوال فترة الحرب.

قالت ابنة عمها: «ماذا عن الأوركسترا يا «لا»؟ أخبرينا عن الأوركسترا.»

فردَّت: «في خيرِ حال. بعض العازفين جيد جدًّا. وبعضهم، حسنًا، متحمس.» وتوقفت هنيهة. ثم استدركت: «أعتقد أننا ربما لن نستمر. الناس يغادرون. يستسلمون. أعتقد أنهم قد تعِبوا.»

بدت ابنة العم متعاطفةً. وقالت: «أستطيع فهم ذلك.»

في طريق عودتها، في القطار، وجدت نفسها تُفكر فيه، في فليكس، وتتطلع إلى رؤيته مرة أخرى. كانت قد أحضرت له بعض الجبن من كورنوول؛ لأنها كانت تعرف أنه يحب الجبن.

دخلت البيت. كانت هناك كومة من الرسائل على الأرض، ورأت خطَّ يده على أحد الأظرف. عرفت على الفور ما سيقوله؛ إنها رسالة وداع. فتحتها بسرعة، ممزِّقةً أعلى الورقة الرخيصة من الداخل. كتب: «كان عليَّ أن أذهب فورًا. ليس هناك الكثير من الوظائف لنا الآن، لكني حصلت على واحدة في جلاسكو. هناك بولندي يشغَل منصبًا كبيرًا في شركة أسمدة. عرض عليَّ وظيفة. إنها فرصة جيدة جدًّا لا يمكن تفويتها، وعليَّ أن أستغلها فورًا. لذا غادرت دون أن أقول وداعًا، وجهًا لوجه، دون أن أشكركِ على كل شيء؛ على صداقتكِ لغريب، على الفلُوت، على الأوركسترا. نعم، شكرًا لكِ على الأوركسترا. ربما لا يقول الناس شكرًا على الأوركسترا، ولكني أقول. شكرًا لك.»

وضعت الرسالة على الطاولة ومشت إلى غرفة المعيشة. كان الهواء وَخِمًا، هواء منزل مغلق منذ فترة. توجَّهت نحو النوافذ الفرنسية وفتحتها. وتذكَّرت المساء الذي فتحت له فيه الباب، وكيف تدفَّق الهواء إلى الغرفة في تلك اللحظة، كان دافئًا جدًّا.

الفصل الثاني عشر

كانت «لا» على حق بشأن الأوركسترا. ألغى المايسترو التمرين التالي؛ أراد فترة راحة، وتفهَّمت ذلك. قال إنهم ربما سيبدءون مرةً أخرى في الخريف، أو حتى في الشتاء، ولكنها كانت تعلم أن هذا لن يحدث.

بدايةً كانت تشعر بالشوق إلى فليكس؛ وعلى نحوٍ غريب كانت تشتاق إلى الحرب. لقد أعطتها الحرب هدفًا، شيئًا للقيام به. الآن لم يكن هناك سيارة إسعاف لقيادتها ولا حاجة للمتطوعين. كما لم يكن هناك عملٌ لها. بدأت تساعد في إسطبل للخيول بالقرب من منزلها، مع أنها لم تكن تحب الخيول كثيرًا. فقد منحها هذا شيئًا للقيام به، وأصبحت تشارك في شئون الإسطبل.

مرَّت السنوات. وذهبت إلى الحفلات الموسيقية، في كامبريدج وأحيانًا في لندن. لكنها لم تكن تحب تلوُّث المدينة، وهواءها العطِن، ومن ثَم قلَّت رحلاتها إلى لندن شيئًا فشيئًا. نظرت في المرآة. كانت الآن في الخمسينيات من عمرها، على الرغم من أنها تبدو أصغر. قالت في نفسها إنه لا يزال بإمكانها الزواج، ولكن لم يكن هناك رجال، ولم تكن مستعدة للبحث عن أحدهم. إنَّ قدرها أن تعيش حياتها في هذا المكان، في هذه الزاوية الهادئة من العالم، دون أن تفعل شيئًا محددًا. إذا كان لكلٍّ منا لحظة في حياته، وقتٌ يشعر فيه بالأهمية، فقد كانت لحظتها عندما كان لديها الأوركسترا. أوركسترا «لا». كم من الناس يمكنهم الادعاء بأن لديهم أوركسترا باسمهم؟ كان هذا إنجازًا؛ كان شيئًا مهمًّا.

ثم، في عام ١٩٥٩، قرَّرت أن تكافئ نفسها برحلة إلى مهرجان إدنبرة. كان أكثر المهرجانات تألقًا، وقد رأت برنامجه. اشترت أفضلَ التذاكر للحفلات الموسيقية الكبيرة؛ وحجزت غرفةً في فندق «نورث بريتيش»، غرفة بها حمَّام خاص.

ذهبت إلى الحفلة الافتتاحية في قاعة «أشر». كانت تجلس في الصف الخامس من الأمام، بين الناس الذين يرتدون ملابس رسمية: سترات عشاء، وفساتين طويلة. كانوا أناسًا أنيقين من نيويورك، ولندن، وجنيف. شعرت بأنها لا تنتمي إلى هذا المكان؛ كانت قد بقيت في سافك الريفية طويلًا. خلال الاستراحة خرجت للحصول على بعض الهواء الطَّلق، وعندئذٍ رأت فليكس. كان يقف تحت مصباح على الدَّرج، يقرأ البرنامج.

أرادت أن تعانقه، لكنها لم تفعل. نظر أحدهما للآخر، بتحفُّظ، وقيَّموا تأثير السنين عليهما. بدا هو نفسه: أكثرَ أناقة، بالطبع، لكنه، بخلاف ذلك، لم يتغيَّر.

كان هناك الكثير ليقال. أخبرها أنه ما زال في نفس الوظيفة، لكنه أصبح أكثرَ أقدمية. أصبح مديرًا الآن، ولديه حصة في الشركة. كان ناجحًا.

سألت بتردُّد: «هل لديك عائلة؟»

قال: «أنا مُطلِّق. كانت كاثوليكية، لكن هذه هي الحياة. لقد تركتني. ولديَّ ابن. عمره ست سنوات. وهو يُقيم معي.»

قالت: «يجب أن تأتي لزيارتي. تعالَ في أي وقت. وأحضر ابنك الصغير معك.»

أعطاها عنوانه ورقم تليفونه.

وقال: «ماذا عنكِ؟ أما زلتِ في نفس المكان؟ نفس البيت؟»

أجابت: «نعم. نفسه.»

الفصل الثالث عشر

كانت تأمل في أن يتواصل معها، أن يتصل بها تليفونيًّا على الأقل، لكنه لم يفعل. كادت أن تتصل به في عدة مناسبات، لكنها منعت نفسها. إذا كان يريد الاتصال، كان سيفعل. لا يجب أن تُزعجه.

في عام ١٩٦٠، ذهبت إلى إيطاليا لشهر. سافرت إلى أقصى الجنوب حتى نابولي، حيث تعرَّضت للسرقة. سُرِق منها كل شيء: جواز سفرها، وأموالها، وكاميرتها. لم تشعر بالحزن؛ في الواقع، كانت متفاجئة من هدوئها. قالت لنفسها إن هذا ربما يكون لأنه لا شيء يحدث في حياتها. هذا هو أكثر الأمور التي حدثت في السنوات الأخيرة إثارةً، ولذا فإنها لم تمانع حقًّا. قالت لها صديقة: «أنتِ رابطة الجأش حقًّا يا «لا». إذا حدث هذا لي، فسأغضب بشدة. في الواقع سأستعِر غضبًا.» فابتسمت «لا»؛ جعلتها الكلمة تفكر في فيزوف، البركان المستعِر في نابولي.

ثم، في العام التالي، حدث شيء. حدث في مكان بعيد جدًّا، على بُعد آلاف الأميال من المحيط، لكنه بدا لها كما لو كان يحدث في البيت المجاور، كما لو كان، بطريقة غريبة، أمرًا شخصيًّا. التقطت طائرة تجسُّس أمريكية، تُحلِّق عاليًا فوق البحر الكاريبي، صُوَرًا لمُنشأة تصنيع صواريخ في كوبا. وفجأة كان هذا في الأخبار؛ وقيلت كلماتٌ خطيرة. قرأت مقالة على الصفحة الأولى في صحيفة كانت تقول: «هذا خطير جدًّا، جدًّا. هذه قد تكون النهاية.»

قرأت «لا» هذا وفكَّرت فيما تعنيه كلمة «النهاية». كانت تعني نهاية الأشجار في حديقتها، نهاية منزلها القديم، نهاية الطرق التي تؤدي إلى الريف، نهاية الشجيرات التي

تحفُّها من الجانبين، نهاية الهواء النقي، نهاية السماء العالية الصافية في هذا الجزء من إنجلترا. كانت تعني نهاية الحانة في القرية، نهاية صبي الجزَّار ودرَّاجته، نهاية لندن، نهاية الراديو، ونهاية الموسيقى.

في الليلة الأولى من الأزمة، لم تستطِع «لا» النوم. كانت ترقد هناك في الظلام وتنظر إلى السقف. قالوا إنها ستأتي بسرعة. متى ستحدث؟ ربما سيُصدرون تحذيرًا قبلها بأربع دقائق. أربع دقائق. ماذا يمكننا أن نفعل حيال ذلك؟ فكَّرت في حقيقة أنك لا تستطيع القيام بأي شيء بمجرد بدء التصعيد؛ لا يمكنك أن تتحدث وجهًا لوجه مع الأشخاص المعنيين وتقول لهم توقفوا؛ أو تنحني على ركبتيك وتتوسل إليهم ألا يستمروا. لا يمكنك؛ لأن الأشخاص المعنيين كانوا مختبئين خلف الأبواب والجدران؛ كانوا في أعماق المخابئ، خلف الخرسانات، بعيدًا. لا يمكنك التحدث إليهم.

استيقظت في الساعة الرابعة صباحًا، دون أن تَحظى بأي قدرٍ من النوم على الإطلاق. كانت قد قرَّرت، ولم يتغير قرارها حتى بعد أن أضاءت المكان. قررت أن تقيم حفلًا موسيقيًّا عاجلًا من أجل السلام، في غضون أيام قليلة. ستجمع أعضاء الأوركسترا. ستدفع لهم أجرة قطاراتهم. ستجمعهم معًا — للمرة الأخيرة — في حفل موسيقي من أجل السلام. لم يكن مهمًّا إذا لم يكن أيهم قد سمع شيئًا أو لاحظ شيئًا. سيحدث شيء بالتأكيد. سيفعلون شيئًا.

الفصل الرابع عشر

لم تُضِع وقتًا واتصلت بأعضاء الأوركسترا على الفور. لم تتمكن من العثور على بعضهم، بالطبع؛ وبعضهم مات، أو لم يُسمع عنه منذ سنوات. ولكن الخبر انتشر، وكان أحدهم يتصل بالآخر. وبالتدريج، تجمَّعت الأقسام ووافقوا؛ نعم، يمكنهم الحضور والعزف في الحفل الموسيقي. قالت «لا»: «سيكون الأداء تقريبًا عشوائيًّا، ربما علينا أن نُجري تجربة أداء واحدة على الأقل.» لم يعترض أحدٌ على ذلك. سيحضرون للتمرين.

كان فليكس آخِرَ مَن اتصلت بهم؛ لأنها على الأقل كانت تعرف بالضبط كيف تتواصل معه، ولأنها كانت قلِقة بشأن هذا الاتصال. كان صامتًا لبضع لحظات بعد أن شرحت له الموضوع.

قال: «تريدينني أن أحضُر، أليس كذلك؟»

قالت: «بلى. أنا أطلب منك الحضور.» شعرت كأنها تطلب معروفًا، ولكنها أرادته أن يكون هناك، أرادته هو تحديدًا هناك. قالت: «أحضِر ولدك الصغير معك.»

قال: «سأفعل.»

وصل الجميع. راقبت الأصدقاء القدامى يلتقون ويتبادلون العناوين. وفكَّرت أنه إذا لم ينجح الأمر، وإذا لم يكن هناك سلام هذه المرة، فإن هذه العناوين لن تصبح موجودةً على أرض الواقع. فالأمور مختلفة هذه المرة.

تمكَّنوا من إجراء تجربة أداء واحدة، وجيزة، ثم أقيم الحفل. انتشر الخبر، وجاء الناس؛ كانوا كثيرين، في الواقع، بحيث اضطُرُّوا إلى فتح أبواب القاعة والسماح للناس بالاستماع من الخارج. جلست «لا» في الجزء الخلفي من القاعة، كما كانت تفعل دائمًا، وبجانبها كان ولد فليكس الصغير، الذي بلغ حينها الثامنة. كان سلوكه لطيفًا ومقبولًا، كان يحمل سيارة لعبة صغيرة يلعب بها بهدوء على ركبته، ويقودها صعودًا وهبوطًا. ألقت عليه نظرة وابتسمت. فردَّ لها الابتسامة.

كانت قد نسيت العروض المتنوعة لأوركستراها، ولذا لم تستطِع الحُكم إن كانت أفضل الآن مما كانت عليه من قبل أم لا، لكنها بدت جميلة لها، جميلة جدًّا، بالضبط كما كانت تتمناها. في نهاية الحفل الموسيقي، عندما توقف صوت النغمات الأخيرة، ساد في القاعة صمتٌ تام. ثم، نهض أعضاء الأوركسترا، واحدًا تلو الآخر، وكذلك الجمهور. نهضوا في صمتٍ تام. لم يقل أحد كلمة، لم يَسعل أحد أو يبدِّل ما بين قدميه؛ كان الصمت هو سيد الموقف. ثم خرجوا. بدا أن الجميع شعروا بأنه من الخطأ كسر جو اللحظة بالتصفيق، ولذا لم يكن هناك تصفيق. فقط الصمت.

خرجت «لا» إلى الخارج ونظرت إلى السماء، حيث ما زال هناك شعاع من الضوء. كان ابن فليكس الصغير معها، لكنها كادت تنساه. فكَّرت أنه لا يفهم ما يحدث، وهذا شيءٌ جيد.

الفصل الخامس عشر

دعت فليكس وابنه إلى المبيت في الغرفة الخالية في نهاية الممر في الطابق السفلي. وعندما استيقظت في الصباح التالي وذهبت إلى المطبخ، رأت أن الاثنين قد استيقظا بالفعل وخرجا إلى الحديقة. كان فليكس يُري ابنه الشجيرات الصغيرة، مما ذكَّرها أنه كان قد زرع بعضها، وما زالت هناك بعد كل تلك السنوات.

أراد أن يُري ابنه المكانَ الذي عاش فيه، ولذا اصطحبه بعد الإفطار، في سيارته. وبقيت هي في المنزل. كانت تقدم القهوة لعدد من أعضاء الأوركسترا الذين جاءوا للحفل الموسيقي من أماكنَ بعيدة وسيغادرون في وقت لاحق من ذلك الصباح.

قال أحدهم: «أتمنى أن يكون ما قدَّمناه مفيدًا. ولكني أشُك في ذلك على أي حال. أليس هذا فظيعًا؟»

قالت: «الموسيقى تُحدث فارقًا. حتى لو ... حتى لو ...» لكنها لم تستطِع أن تكمل الجملة.

ثم سمِعوا الأخبار. صدح بها الراديو، في المطبخ. قال أحدهم، ببساطة، «السلام». فجلست لأنها ظنت أنها ستفقد الوعي. أمسكت رأسها بيديها. وقالت: «عجبًا!» كان هذا كلَّ ما قالته: «عجبًا!»

أرادت أن تجد فليكس على الفور وتخبره، لكنها أجبرت نفسها على الانتظار حتى يعود. ثم خرجت إلى الطريق المؤدي إلى المنزل. ورآها من خلال نافذة سيارته، وعندئذٍ أدركت أنها لا بد أن تبتسم وإلا سيعتقد أن الأخبار سيئة. فابتسمت. ثم، لتوضيح الفكرة، لوَّحت بيديها في الهواء.

قال: «أخبار جيدة؟ أهي أخبار جيدة؟»

فأجابت: «نعم. نعم.»

التفَت وعانق ابنه الصغير وقبَّله. بدا الصبي مُفَاجأً، بل حتى مُحرَجًا. ثم أخذ فليكس يدي «لا» في يديه. لم يُقبِّلهما، ولكنه ضغط على يديها، كأنه يشاركها بعضَ الأخبار الجيدة السريَّة.

قال: «إنها الأوركسترا يا «لا». أوركسترا «لا» أنقذت العالم. مرة أخرى.»

فكَّرت في هذا لاحقًا. قال «مرة أخرى»، وعندها عرفت ما يعنيه.

دخلوا إلى المنزل، حيث كانت قد صنعت القهوة. في المرة الأخيرة التي كانوا معًا، لم تكن هناك قهوة حقيقية؛ أما الآن، فيا لها من رفاهية. ستظل هناك قهوة، وماء لصنعها، وناس لاحتسائها. كان كل هذا مُهدَّدًا، ولكن الآن انتهى التهديد.

سألت: «متى يجب أن تغادر إلى جلاسكو؟»

تردَّد، وأدركت أن هناك أوقاتًا يجب فيها قول شيء ما، شيء جامح غير لائق؛ وصريح للغاية.

قالت: «لا تغادر. ابقَ هنا. ابقَ فحسب. يمكننا أن نعيد تشغيل الأوركسترا.»

نظر إلى ابنه، ثم نظر إليها. ونهضت على قدميها وحملت الصبي الصغير وقبَّلته.

هنداوي